طلقة تنوير
المجلة الثقافية للائحة القومي العربي
لائحة القومي العربي

العدد رقم (65) صدر في 1 تشرين الأول عام 2019 للميلاد

محور العدد: صناعة الهويات

انتخابات تونس 2019: نواقيس الخطر تقرع من جديد

عبدالناصر بدروشي

تلقّفت كل الأحزاب السياسية نتائج الدور الأول من الانتخابات الرئاسية بالصدمة والذهول.

وحدها شركات سبر الآراء ومراكز الإحصاء والدراسات الأمريكية تعاملت مع النتائج كخبرٍ معلومٍ مسبقاً أو كحصيلةٍ منطقيةٍ منتظرةٍ لمسار لا يعلمه غيرُها. ومن الأهميةِ بمكانٍ أن نسلّط الضوء على طبيعة عمل شركات مراكز الدراسات والإحصاء التي توظّف آلاف الشباب فهي ليست مؤسسات خيرية، ولا تهدف فقط إلى استطلاع الرأي بل توظف ما تمتلكه من معطيات وإمكانات لصناعة الرأي العام وتوجيه المزاج الشعبي، حيث أظهرت هذه النتائج تقدّم كل من قيس سعيّد الأستاذ الجامعي، ونبيل القروي رجل الأعمال والإعلام وأحد أهمّ رموز الفساد، وهو الوضع الذي يمنح المرشح الأول صورة "المنقذ" الذي سيطوي صفحة سوداء من حكم المنظومة القديمة التي أوغلت في الفساد.

يبدو أن تونس، مع رئيسها الجديد المرتقب، مقبلة على عملية إعادة هندسة عميقة فضحها الأمريكي نائب مدير الأبحاث في "مشروع الديمقراطية في الشرق الأوسط" حين قال مُعلّقاً على نتائج الانتخابات: "تونس تدخل مرحلة جديدة، وإعادة هيكلة جارية"، وفي نفس السياق نشرت صحيفة نيويورك تايمز مقالاً استشهدت فيه برأي رئيس مركز (Columbia Global Centers Tunis) الذي يرى بأن "التونسيين يقطعون علاقتهم بالأحزاب".

تقارير المراقبين التابعين لمراكز دراسات الدول الغربية وكبرى الصحف العالمية والمحللين السياسيين يجمعون أننا إزاء تحوّل كبير و"زلزال" سياسي بدأ في تونس وربما سينتشر في عدة دول، وفي ذات الوقت لم نلاحظ لدى الدول الاستعمارية أي تخوّف أو احتراز من التحولات المقبلة! بل هم لا يُخفُون إعجابهم بما يسمّونه "النموذج التونسي".

في حين ندرك أنه لا غبار على شبهات الفساد التي تحوم حول المرشح القادم من المنظومة القديمة، يدفع بنا أغلب المحللين السياسيين إلى التركيز على شخصية المترشح الصاعد ونزاهته وصفاء سريرته ونظافة يده، ولكن تحديد معالم المرحلة الجديدة حسب اعتقادنا لا يجب أن ينطلق من البحث في شخصية

طلقة تنوير 65: صناعة الهويات

المجلة الثقافية للائحة القومي العربي... عدد 1 تشرين أول 2019

- انتخابات تونس 2019: نواقيس الخطر تقرع من جديد/ عبدالناصر بدروشي
- عن "الهويات القاتلة" عند أمين معلوف/ مريم نصرالله
- صناعة الماضي وتخيله كمعزز تاريخي وثقافي للهويات المتخيلة/ فارس سعادة
- إشكالية الاندماج في المجتمع العربي/ بشار شخاترة
- قراءة في الصعود العالمي للدولار الأمريكي خلال الأشهر الفائتة/ إبراهيم علوش
- الصفحة الثقافية: رواية المرأة الفلسطينية (أم سعد)/ طالب جميل
- الشعب هو الأبقى.. والانحياز له سلاح لا يُقهر/ كريمة الروبي
- قصيدة العدد: الجرح الكبير، في رثاء الرئيس جمال عبدالناصر/ حنا الطباع
- رسم العدد: ناجي العلي عن عبدالناصر و فلسطين

لمتابعتنا انظر:

لمتابعتنا على فيسبوك، ابحث عن:
لائحة القومي العربي/ الصفحة البديلة

روابط صديقة:
موقع الصوت العربي الحر
www.freearabvoice.org

راسلنا على:
arab.nationalist.moderator@gmail.com

العدد رقم (65) صدر في 1 تشرين الأول عام 2019 للميلاد

الرجل بل بتحليل مضامين الخطاب السياسي الذي رافق صعوده والمزاج الشعبي الجديد الذي تشكّل وتَمَظْهَر على شكل شعارات انتشرت كالنار في الهشيم وأسكَرت الكثيرين بعد زوال مفعول خمرة «الربيع العربي»، وهي شعارات ثورية من حيث الشكل، وفوضوية وهدامة من حيث المضمون، ونخشى أن يقع استغلال حالة النشوة الثورية ليمرروا لنا برنامجاً خطيراً تحت قناع رجل نظيف، ولذلك نركّز جلّ انتباهنا على احتمال قدوم الخطر من حيث لا نتوقّع.

الملفت للانتباه، أنه مباشرة منذ التصريح بنتيجة الدور الأول رفعت شعارات تحمل أجواء «الثورات» الربيعية مثل: «الشباب المستقلّ» يصنع خياراته ويشق طريقه نحو الحرية ويثور على منظومة الفساد و«الشعب يحكم نفسه بنفسه ولم يعد بحاجة إلى قيادات»، في مقابل شعار أحداث 2011 الذي كان: «الشباب يريد إسقاط النظام»، والمقصود به الرئيس وأقاربه والحزب الحاكم وأذرعه.

وفي إطار التبشير بحلقة جديدة من حلقات «الربيع العربي» يستنفر قيس سعيد أنصاره مردّداً: «الشعب يريد إسقاط المنظومة»، و«كنس الأحزاب حكماً ومعارضة»، وها هم رعاة حملته الانتخابية يبشّرون بعصرٍ جديدٍ تنتهي فيه صلاحية نموذج الدولة المركزية وتموت فيه الأيديولوجيا ويُشطب أي تأثير للأحزاب في الحياة العامة ويضعها على هامش الفعل السياسي، في مقابل تقديم «المجتمع المدني» و«المستقلين» لريادة الشأن العام.

إن التمحيص في المضامين السياسية لتصريحات قيس سعيد وفريقه، والاطلاع على الأرضية السياسية لـ «قوى تونس الحرة» التي كان المدعو «رضا لينين» (مدير حملة الأستاذ سعيد) أحد أبرز مؤسسيها، يقودنا إلى تلمس بعض الجوانب الحقيقية من البرنامج الذي سيتكفّل قيس سعيد بتنفيذه في تونس وهي:

• تحريض صريح للشباب للابتعاد عن التّنظّم الحزبي على أساس عقائدي ودفعهم ليكونوا مستقلين خشية أن يقودهم فقدان الثقة في الأحزاب الحاكمة الفاسدة إلى الانخراط في الأحزاب الصغرى والمعارضة؛ وذلك بهدف تصحير الساحة السياسية من الأحزاب الجماهيرية وتسليم مفاتيح الساحات الشعبية، ليس للجماهير كما يدّعون، بل لقوى ما يسمى «المجتمع المدني الكوني» والجمعيات المرتهنة للتمويل الأجنبي والتي تدّعي أنّها مستقلّة وهي تابعة لمنظمات الاختراق الأمريكية (مثل «فريدوم هاوس» و«جورج سوروس»..).

• تفكيك الدولة المركزية بما يخدم أهداف الإمبريالية عبر تغيير طبيعة النظام من مركزية الدولة إلى حكم المحليات.
• ضرب الأيديولوجيا كرافعة للمشاريع السياسية الوطنية خدمة لأيديولوجية العولمة.
(يمكن الاطلاع على تفاصيل من رؤية المرشح قيس سعيد ومن حوله لشكل الحكم، في مقال لصحيفة الشروق بتاريخ 17 سبتمبر/ أيلول 2019، وفي منشور على موقع «موزاييك إف إم» بتاريخ 3 سبتمبر/ أيلول 2019)

ولا نعرف، بعد كل هذا، على أي أساس ارتكزت الأحزاب والقوى السياسية الأيديولوجية في تونس، حين قررت أن تدعم قيس سعيد، والحال أن صعوده يؤذن بميلاد عصرٍ جديدٍ يضعها على الرّف، ناهيك عن منعرجٍ خطيرٍ سيجعل من تونس خاصرة رخوة تمكّن القوى الإمبريالية الولوج من خلالها إلى الجزائر لزعزعة استقرارها ووحدة ترابها وتحويل بلادنا إلى منطلق لإدارة حروب التفكيك ونهب الثروات في المنطقة.

العدد رقم (65) صدر في 1 الأول عام 2019 للميلاد

ينكر قيس سعيد وأنصاره وجود حملة أو ماكينة انتخابية أشرفت على تصعيد مرشحهم، ويحبذون تقديمه بصفة "الرئيس" البسيط المستقل الذي فاجأ الجميع وتقدم على كل منافسيه من دون حملة انتخابية صاخبة ومن دون أي تمويل وأن الشباب التونسي قد اختاره دون سابق اتفاق أو تنسيق! وهذا استبلاه للعقول، فنحن ندرك بأن تأثير الفضاء الافتراضي الأزرق (فيسبوك) الذي يتمّ تفعيله عن طريق شركات كبرى خفية وبأموال ضخمة أقوى بكثير من الإعلام التقليدي الذي لم يعد يستهوي الشرائح الشبابية، ولنا أن نتساءل: كيف قفز قيس سعيد إلى أذهان الناخبين، وكيف تشكّل حوله شبه إجماع شبابي، لا سيما مع وجود منافسين له من خارج المنظومة التقليدية ويتمتعون بقوّة حضور (الصافي سعيد مثلاً) ويمتلكون خطاباً منمقاً وبسيطاً وثورياً إلى حدّ ما، ويمكن أن يستجلب الشباب أكثر من شخصية وخطاب قيس سعيد الذي يتحدّث لغة عربية فصحى نكاد نجزم أن أغلب الشباب لا يفهمها.

يرجع البعض، كما تروّج حملة "عيش تونسي" الصفراء ضخمة التمويل، أن اختيار الشباب جاء نتيجة شعور "سئمنا من الحكومات والسياسيين والأحزاب"، والحقيقة العلمية والتجربة تؤكّد أن ردة فعل الشباب والمواطن غير المنتظم التلقائية تجاه تدهور الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية عادة ما تكون مقاطعة الانتخابات والعزوف عن المشاركة في الحياة السياسية وليس الإقبال عليها والإجماع بكثافة على مرشح لم يعرفوه سابقاً ولم يختبروه، ويصعب تصديق ادعاء أن شباباً غير متحزب وغير مهيكل اتفق على تصعيد قيس سعيد من دون سابق اتفاق إلّا إذا تم اعتماد محفزات ومؤثرات لمخاطبة لاوعي الجماهير، والفئات الشبابية خاصة، عبر إعلانات الفيسبوك المموّلة وصناعة الشعارات المغرية والمؤثّرة.

إن محاولة تفكيك لغز لامعقولية التقدم الكاسح الذي أحرزه قيس سعيد تدفعنا باتجاه البحث في حقيقة الماكينة الخفية التي عملت على تصعيده وفي الصندوق الأسود لحملته الانتخابية، بين فيسبوك والحركة التروتسكية:

رئيس حملة قيس سعيد (كما لا يحب أن يقدم نفسه)، السيد "رضا شهاب المكي"، الملقّب بـ "رضا لينين"، الذي يرافق قيس سعيد أينما حلّ (والذي يهاجم كل حزب أو جهة منظمة تحاول الاستفادة من الزخم الشعبي الذي تحقق حول صورة الرئيس الصاعد)، هو أحد المفاتيح الضرورية لفهم حقيقة ما يجري، وأفضل ما يوضح لنا توجهات مجموعته هي الأرضية السياسية لما يسمى بـ"قوى تونس الحرة" التي أسّسها السيد رضا معهم، وهي مجموعة تروتسكية فوضوية متصالحة مع تيار الإخوان المسلمين ومنسجمة مع أطروحات عزمي بشارة، وتصنّف نفسها ضمن ما تسميه "المجتمع المدني الكوني"، وتعتمد بشكل أساسي على شبكات التواصل على الانترنت وقد لاقت تجاوباً مع رؤية قيس سعيد في الحكم بالمحلّيات غير المركزية. ولمزيدٍ من التوضيح نقتبس من أرضية أو برنامج "قوى تونس الحرة" ما يلي:

"وقد غيّرت الشعوب وسائل نضالها لتتناسب مع حجم الدمار الذي يلحقها فتشكّلت النضالات في رابطات كونيّة وشبكات عالميّة أطلقت على نفسها "المجتمع المدني الكوني..." إنّ هذا النمط الجديد من النضال الذي تجاوز الحدود الوطنية ووسائل التعبير الكلاسيكية نقابات، أحزاب الخ... يعلن وبكلّ وضوح عن ميلاد عصر جديد لثورات جديدة كانت أوروبّا مسرحاً لها في بداية هذا القرن وهاهي الثورة في البلاد العربيّة تتحوّل إلى واقع سريع الانتشار، عارم وجارف منطلقه ثورة تونس التي أسّست لعهد جديد من الثورات.."، انتهى الاقتباس.

كما أن الدعاية الكبيرة التي لقيها السيد "سعيد" داخل المعبد الأزرق (فيسبوك) والمرتكزة على خصاله النبيلة ليست أكثر من غطاء لمشروع سياسي خطير، فهل يعقل أن يكون الفيسبوك الحريص على معايير مجتمعه المتصهين هو الرافعة الرئيسية التي حملت قيس سعيد مجاناً أو في غفلة من "مارك" للوصول لملايين المواطنين؟! فهل تغيرت معايير هذا الفضاء؟! وكلّنا نعلم أن الفيسبوك يعطّل ويعاقب آلياً ويومياً مجرّد منشورٍ فيه خدشٌ للصهيونية ويقوم بعمليات حظر متكرّرة للصفحات المناهضة للإمبريالية وهو لا يمكن أبداً أن يسهم في تصعيد نجم لا يثق في توجهاته المستقبلية. وحين يراهن قيس سعيد على الفيسبوك، وعلى "الجزيرة مباشر" و"فرانس 24" وقناة "العربية" يكون قد ساعدنا بما يكفي **لنفكّ ألغاز مشروع (رضا لينين) الماركسي-التروتسكي الفوضوي في تونس والذي قد لا يدركه قيس سعيّد نفسه.**

لا يفوتنا تحليل نقطة مهمة؛ وهي أن وفاة الرئيس الباجي قائد السبسي (الذي يشك الكثيرون في أنه قتل) أدّت إلى إجراء انتخابات رئاسية مبكرة سابقة للانتخابات التشريعية، وهو ما يقطع الطريق أمام انتخابات تشريعية تجري بحضور السبسي وتوافقاته المعهودة، بالإضافة إلى أن الجو العام الذي رافق صعود قيس سعيد سيؤثر على مسار انتخابات مجلس النواب،

العدد رقم (65) صدر في 1 تشرين الأول عام 2019 للميلاد

عبر مزاج عام للناخبين سيكون مناهضاً للقوائم الحزبية ومتعاطفاً مع المستقلين والوجوه الشبابية المرتبطة بـ"المجتمع المدني"، كما أن "صدفة" تزامن وفاة الرئيس السبسي وزوجته والرئيس الأسبق بن علي في هذا التوقيت يساعد على خلق شعور عام بدفن مرحلة قديمة بأكملها ويوحي بأن عالماً قديماً بصدد الانهيار وأن عالماً جديداً يستعد للتشكل ويشجع هيجاناً ثورجيّاً يدعو إلى الدوس على كل ما هو قديم مثل ما تبقى من مؤسسات الدولة والأحزاب والإعلام في وقت بلغ فيه الضيم من "الربيع العربي" درجة دفعت عديد المواطنين إلى المجاهرة بتمني عودة المنظومة القديمة بأكملها.

وهو ما يوحي إلى أن النتائج الأولية للرئاسية قدت على مقاس مرحلة جديدة عنوانها صعود المستقلين والمجتمع المدني على حساب الأحزاب والإيديولوجيا وضرب مركزية الدولة لصالح حكم المحليات وعبر تفكيك القضية الوطنية بمفهومها الشمولي وتحويلها إلى عناوين حقوقية وتنموية وخيرية تتبناها شخصيات مستقلة ويقودها ما يسمى بحراك "المجتمع المدني" المخترق إمبريالياً وتهميش دور الإعلام الرسمي التقليدي واستبداله بالإعلام الافتراضي الفيسبوكي المخفي على العموم واستهداف ودفع الشباب للابتعاد عن التنظّم.

نحن نقف أمام واحدة من أكبر عمليات التحكم النفسي الجماعي عبر الاتصال الجماهيري ضمن منصات المعبد اليهودي الأزرق "فيسبوك"، ومع مرور كل يوم يتضح لنا صحة موقفنا بضرورة إعطاء أولوية للعمل الجماهيري والاتصال بالجماهير من خارج منظومة الربيع المتصهين.

وبناء على ما تقدم، فإننا في لائحة القومي العربي/ تونس ندعو كل القوى السياسية الوطنية إلى التنبه للمنزلق الخطير الذي تجرنا إليه الإمبريالية عبر أدواتها المتجددة وتؤكد على:

• ضرورة استمرار التمسك بخيار مقاطعة الانتخابات الرئاسية وجميع مخرجات ما يسمى "الربيع العربي"، وتحويل خيار المقاطعة إلى منصّة لاستصلاح الوعي وتصويب البوصلة الوطنية، فإن الناخب سيجد نفسه أمام خيارين غير قادرين على إخراج تونس من فلك الإمبريالية.

• العمل على ابتكار آليات نضالية تساعد على فتح قنوات تواصل مع شباب تونس لتوعيته وتحصينه مما يُدبّر له من عمليات تغرير جديدة على شاكلة وهم "ثورات الربيع العربي"، والتصدي لمحاولة إعادة نفخ روح جديدة في مشاريع الفوضى الهدّامة المتسترة بقناع الديموقراطية.

• دعوة الوطنيين والشرفاء، كل من موقعه، إلى تحصين الدولة من مشاريع التفكيك التي تريد أن تعبر على ظهر أطروحات اللامركزية التي يبشر بها قيس سعيد وفريق حملته.

• دعوة الأحزاب الوطنية إلى التعاطي بجدية مع ملامح المرحلة القادمة باعتبارها حلقة جديدة من حلقات التآمر الربيعي على تونس، وأن لا تخشى مكاشفة الجماهير بحقيقة ما يجري بدل مسايرتها طمعاً في تحصيل شيء من الأصوات في الانتخابات التشريعية.

• رغم قناعتنا بأن الحل لا يكون بالانخراط في منظومة الربيع، إلا أننا ننبه الوطنيين الشرفاء الذين قرروا المشاركة في الانتخابات التشريعية من خطر القوائم المستقلة، حتى وإن حملت عناوين وطنية قومية أو يسارية، فهي تصب في جوهر مشروع تفكيك الوعي السياسي الجمعي وضرب فكرة التنظم العقائدي لدى الشباب، وعلى هذا الأساس نحن نوصي بضرورة الابتعاد عن القوائم المستقلة ودعم القوائم الحزبية لمن يقرر المشاركة في الانتخابات.

العدد رقم (65) صدر في 1 الأول عام 2019 للميلاد

عن "الهويات القاتلة" عند أمين معلوف

مريم نصرالله

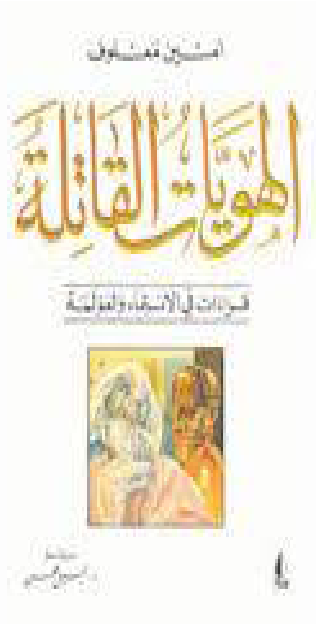

في عام 2006، أُعيد إنتاج سلسلة أفلام الرعب الأمريكية "التلال لها عيون"(1)، مبنيةً أحداثها على القصة التالية: مجموعة من المسوخ آكلي لحوم البشر يستهدفون عائلة تاهت خلال رحلتها في صحراء نيو مكسيكو، والتي كانت مسرحاً لأول تجربة نووية أجرتها الولايات المتحدة عام 1945، حيث يطرح الفيلم فرضية وجود مجموعة من الناس (عمال المناجم) في حقل إجراء التجارب وتعرضهم للإشعاعات النووية التي كانت كفيلة بتغيير "هويتهم" كلياً وإلى الأبد، سيتحول هنا هؤلاء البشر إلى مسوخ، وإلى قتلة للمسافرين "الأبرياء"، بعد أن كانوا بدورهم عمالاً "أبرياء" أيضاً، ولكن بعيداً عن الخيال والكم الهائل من الرسائل المباشرة والمبطنة التي تفرضها السلسلة، فإنَّ السؤال الذي يبقى ملازماً وعند كل مشهد يعرض، هو سؤال الهوية، تلك التي وبرغم تعرضها للعبث والتهديد، يستميت هؤلاء المسوخ في سبيل تأكيدها والحفاظ عليها، وإن كانت، كما يظهر الفيلم، مشوهة.

في كتابه (الهويات القاتلة)، يعرّف الكاتب الفرنسي اللبناني أمين معلوف الهوية أنها "ما يجعلني غير متماثل مع أي شخص آخر"(2)، وقد ينطبق ذلك نسبياً على معنى الهوية إذا أضفنا إليه بعض التفاصيل الإضافية، فتكون الهوية اصطلاحاً: مجموعة من العناصر التي تتداخل فيما بينها حتى تجعل منك ما أنت عليه، قد تكون اللغة، الجغرافيا، الدين، اللون، العرق، الثقافة، التاريخ، المعتقدات، شيئاً من ذلك كله، فيقال على أساسه: هذا عربي وهذا مسلم، وذلك أوروبي، والآخر إفريقي، وهذا مواطن أمريكي، وذلك أمريكي أصلي، فلنتفق إذن أنه ليس ثمة معايير ثابتة تعرف بها الكيانات المختلفة هويتها، إنما هي حصيلة تداخل كل تلك العناصر التي تجعل الأفراد أو الجماعات مشابهين أو مختلفين عن "الآخر"، على أن ذلك التداخل يكون بنسب متفاوتة، حيث تتفوق بعض العناصر على أخرى، فليست كل الهويات قائمة على أساس قومي، ولا كلها على أساس الدين أو العرق، ولا الحيز الجغرافي الواحد-على أهميته- يجعل جماعات متعددة تحمل الهوية ذاتها. وإن كنا لسنا في معرض نقد الكتاب، إنما سنتناول في حديثنا ثلاث أفكار رئيسية:

1- متى تكون الهويات قاتلة فعلاً؟
2- كيف يمكن "ترويض الفهد أو وحش الهوية" فعلاً؟
3- نموذج ترويض الهوية في "محميات" شعب أمريكا الأصلي.

1 – مفهوم "الهويات القاتلة":

ينطلق معلوف في طرحه لمفهوم الهويات القاتلة من فكرة أن "الهوية هي صديق مزيف تبدأ بالكشف عن تطلع مشروع وتصبح فجأة أداة حرب"، مفترضاً أن "اختزال الهوية إلى انتماء واحد يضع الرجال في موقف متحيز ومذهبي ومتعصب ومتسلط أحياناً، وأحياناً انتحاري ويحولهم في أغلب الأحيان إلى قتلة أو إلى أنصار للقتلة، رؤيتهم للعالم موارية ومشوهة"(2)، أي أن التعصب "لانتماء" ما لديك، وهو ما سنسميه "عنصراً" من عناصر هويتك، سيجعل منها هوية قاتلة تستخدم العنف كوسيلة للتعبير عنها، والحق أن طرح معلوف هذا لا يخلو من حقيقة، ومن مجافاة لها في آن، وذلك لعدة أسباب، منها، أن صراع الانتماء ومحاولة تأكيد الذات إنما ينطوي على فعل "الهيمنة"، ففي كل حركة استعمارية أو احتلالية عبر التاريخ، شيء من هذا، سيكون صراعاً بين هويتين على طرفي نقيض

العدد رقم (65) صدر في 1 تشرين الأول عام 2019 للميلاد

تسعى كل منهما إلى تأكيد ذاتها، ولنأخذ مثالاً الاستعمار الفرنسي للجزائر وما تضمنه من عملية فرنسة وفرض للغة والطابع الفرنسيين، أي محاولة فرض هوية دخيلة على شعب ذي هوية خاصة لا تنتمي بأي شكل من الأشكال إلى الهوية المفروضة عليه، فسنرى على الضفة الأخرى الجهة "المستعمَرة" التي يمارَس ضدها فعلُ الهيمنة، تستخدم العنف طريقة لمقاومة فرض هذه الهوية بالدرجة الأولى، ومقاومة طمس أو اغتيال هويتها الخاصة بالدرجة الثانية أيضاً، أي أنه صراع وجود، وفي مثل هذه الحالات، لا يبدو منطقياً النظر إلى طرفين أحدهما معتدٍ والآخر معتدىً عليه بعين واحدة، كما لا يصح التفكير لوهلة أنه بالإمكان سحق انتماء ما من الوجود دون توقع أي فعل "مقاومة"، وذلك ينطبق على كل الكائنات الحية ومنها البشر ببساطة، حتى عند دخول أي جسم غريب إلى الجسم، ستتحول خلايا الجسم البيضاء مثلاً إلى كتيبة مقاتلة لمقاومة المرض، وعند مهاجمة قطٍ لعش طيور ستهاجم الأم القط "العدو" للدفاع عن وجودها، وذلك بغض النظر عن تكافؤ قوة الطرفين المتصارعين في كل الأمثلة، أي وباختصار، أن الهوية حين تتحول إلى "قاتلة" أي تستخدم العنف، فذلك لا يكون خياراً، أمام مواجهتها لفعل "هيمنة"، فإما الوجود أو إنهاء الوجود وللأبد، وهنا سنجرؤ على التعميم أن: كل هوية مهددة هي هوية قاتلة، بنظر معلوف، والأصح أنها مقاتلة بنظرنا.

كما أن كل هوية يتم العبث بها، هي هوية قاتلة أيضاً، وهنا لا تتساوى الهوية المهددة والأخرى التي تعرضت للعبث، فبالعودة إلى مثال الفيلم في بداية المقال، نرى أن الهوية الهجينة التي برزت لدى "المسخ" لاحقاً بعد أن كان بشراً مثلنا، تتسق تماماً مع عملية العبث والتهجين البشعة التي تعرضت لها، درامياً، طرأت تغييرات جينية أولاً غيرت من طبيعة الجسم لدى الفرد، ومن خصائصه، فبعد أن كان إنساناً تحول إلى وحش تقريباً، طرأت تغييرات نفسية ثانياً إثر تعرض هذه الجماعة بالذات لفعل العبث، أي بعد معاملتها كفئران التجارب، حولت شعور الظلم لدى أفرادها إلى رغبة بالقتل لكل ما هو مختلف عنهم أو فلنقل (للآخر) أياً يكن، وإن كان حاملاً لنفس هويتهم قبل تعرضها للعبث والتخريب، وهذا ينطبق على مختلف حالات الاختراق للمجتمعات أو المفاهيم والمعتقدات التي يحملها فرد أو جماعة معينة، والتي تقوم بها بالضرورة جهة تحاول ممارسة فعل الهيمنة الذي ذكرناه سابقاً، أي أن حتى محاولة العبث بخصائص هوياتنا الدينية أو الوطنية، والتي تعتبر من ضمن سلوكيات حركات الهيمنة أو الاحتلال والاستعمار، في حال نجاحها، كفيلة بتحويل الهوية الأصلية والتي قد تكون مسالمة بطبيعتها، إلى هوية قاتلة ذات فعل تخريبي وتدميري يتسق تماماً مع بشاعة عملية العبث التي تتعرض لها، فلن يكون غريباً حينئذ، بالنظر إلى ممارسات الحركات الأصولية، من مختلف الأديان والعقائد، التي تتخذ من دين ما أساساً وستاراً لعملها، (القاعدة، الإخوان المسلمون) مثالاً حالياً، و(القوات، الكتائب وسائر الأحزاب اللبنانية الانعزالية خلال الحرب الأهلية 1975)، ملاحظة مدى العبث الذي طرأ على الهوية الدينية الأصلية لأفرادها حتى تحولت عن أساس وفطرة الدين القائم على نبذ الإجرام، إلى هوية دينية هجينة تقوم أساساً على القتل والإجرام.

2 - "ترويض الفهد أو وحش الهوية":

يعتمد معلوف هذا المصطلح عنواناً للفصل الرابع من كتابه، وعن سبب اختيار (الفهد) يوضح: "لأنه يقتل إذا طاردناه ويقتل إذا تركناه طليقاً، والأسوأ أن نتركه في الطبيعة بعد أن نكون قد جرحناه، ولكنني اخترت الفهد لأننا نستطيع أن نروضه أيضاً"(2).

وهنا يطرح معلوف "هدفاً أكثر تواضعاً ووضوحاً، وهو محاولة فهم الطريقة التي تثير بها العولمة السلوكيات المعبرة عن الهوية، وبأية طريقة تستطيع أن تجعلها يوماً ما أقل قتلاً"(2)، أي أن الحل للسيطرة على "وحش الهوية" برأيه هو العولمة، وهذا الطرح لا يبدو غريباً في عالم (ما بعد الحداثة)، والتي يعرفها قاموس أوكسفورد بأنها: " فترة أو حركة تمثل خروجاً عن الحداثة، وتتميز بالاستخدام الذاتي الواعي للأساليب والاتفاقيات السابقة، والخلط بين الأساليب الفنية ووسائل الإعلام المختلفة، وعدم الثقة العامة بالنظريات"(3)، أي أنه ليس غريباً اتخاذ هذا المنحى القائم على الريبة من النظريات والأيديولوجيات أساساً لحل "مشكلة الهوية"، ما دامت الهوية في أحد أهم عناصرها هي منظومة القيم والمعتقدات التي ينتمي إليها فرد أو جماعة، نظرياً، ولنبسط ما يطرحه معلوف: ما دامت الهوية مسألة معتقدات، فلمَ لا يتم نسف المعتقدات التي لا تخدم "الثقافة الشمولية والتي يفضل ألا تكون أمريكية حصراً حتى لا تلاقي رفضاً قاطعاً وساخطاً وانتحارياً كردة فعل، بل ينبغي أن يتعرف فيها كل فرد على نفسه قليلاً"(2) ويتم بعدها إحلال معتقدات جديدة، مهجنة، تروض عبرها كل تفكير يمكن أن يذكر الإنسان بهويته الأصلية، وكل ذلك سيكون عبر "دين كوني شامل سيكون مخرجاً آمناً لمستقبل الكوكب"(4)، وهنا علينا أن نتساءل:

العدد رقم (65) صدر في 1 الأول عام 2019 للميلاد

أولاً، هل يعتبر وجود آلاف الهويات الخاصة في هذا الكوكب مصدر قلق حتى يتطلب حلاً؟ لا بل هو مصدر قلق لمن بالتحديد، فلنقل في هذا الصدد أن ما من خطر في ذلك إلا على دعاة العولمة وما بعد الحداثة، الذين يدعون باتجاه سيطرة قطب واحد بعد صراع طويل بين الشيوعية والرأسمالية خلال الحرب الباردة (4)، ولا يخفى على أحد أنه القطب الأمريكي الذي استهدف جعل كل كيان وكل حضارة وكل لغة تابعة له بشكل أو بآخر، إذن فإن المتضرر الأكبر من فكرة احتفاظك كعربي مثلاً بهويتك وثقافتك وعاداتك إنما هو ذلك الذي يرى باعتزازك بالدرجة الأولى بهذه الخصائص، تحدياً له كقوة سياسية وثقافية و"حضارية"، وذلك ينطبق حتى على أوروبا بالمناسبة، حيث يرى الأوروبي مثلاً –وذلك باعتراف معلوف نفسه- أن "الحداثة (وهي المقترنة عنده بالأمريكي) تصبح حتى في الغرب وفي بلد متطور ذي ثقافة مزدهرة ومحترمة عالمياً مثار شبهة، ما أن يتم تصورها على أنها حصان طروادة لثقافة غريبة مسيطرة"(2)، ومن هذا المنطلق سيكون من الواجب والضروري عند محاولة استهداف هوية معينة تعميم بعض الآليات التي تسمح لها بالتدمير الذاتي، أي بيد أصحابها، ومنها كل ما يدعو للانسلاخ عن الذات، واحتقارها، عبر النكران العبثي للتاريخ والقيم التي تقوم الهوية المستهدفة على أساسها، إذ يكفي توظيف بعض الإمكانيات الإعلامية والاقتصادية في سبيل تشويه لغتك، ورموز هويتك، وكل ما يمت بصلة لها، وبعدها سيكون إحلال الثقافة الشمولية التي ستلغي كيانك بعد فترة، مهمة أسهل، والحقيقة أن الحل الوحيد لجعل المتخوفين من الهوية في مأمن منها بوصفها وحشاً، هو انتفاء الأسباب التي تجعلها كذلك، أي بشكل خاص التهديد والعبث، وذلك غير ممكن طبعاً كونه لا يتفق مع الطبيعة الاستعمارية لدعاة الحضارة الإنسانية المشتركة، ولا مع الطبيعة البشرية ذات غريزة البقاء التي تدفعها للمقاومة حتى الرمق الأخير.

ثانياً، ما الغرض الذي يمكن أن يدفع شخصاً إلى تبني هويات متعددة، غير أو إضافةً إلى هويته الأصلية؟ الحقيقة أن في ذلك محاولة للهرب من جهة، وتبرير الهرب من جهة أخرى، وقد يكون معلوف، كاتب هذا الكتاب، أحد أوضح الأمثلة، فلنقرأ في حالته عن كثب، سنجد شخصاً كما يذكر في كتابه (عربياً لبنانياً مسيحياً)، يهجر بلده إثر الحرب الأهلية إلى فرنسا، ليصبح بالإضافة لما سبق (أوروبياً)، معترفاً بفضل كل انتماء في تكوين شخصيته المنفتحة، التي تدعو بالإضافة لأفكار كثيرة، إلى التعايش مع كل "الكيانات الإنسانية" واحترامها، واليهود أو "الإسرائيليون" بالنسبة إليه طبعاً، هم قومية، يجب أن تكون عنصراً مهماً في خليط ثقافة الحضارة المشتركة التي يناضل في سبيلها، إذ يقول " لا نريد أن يتحول العالم إلى غابة إذا كنا نريد تجنب أن يصبح أطفالنا بعد خمسين عاماً، أو مئة عام، مضطرين لأن يشهدوا مثلنا نحن العاجزين، المذابح وعمليات الطرد وتطهيرات أخرى، وأن يخضعوا لها أحياناً"، إن امتلاكه مع "ملايين غيره انتماءات متناقضة بالولادة أو بمصادفات مسارهم أو أيضاً بإرادة واعية تجعلهم قادرين على أن يؤثروا على الأحداث وجعل الكفة تميل في اتجاه آخر، فهم ينفعون كصلات وصل بين مختلف الجماعات والثقافات"(2)، إذن إن انتماءاته المتعددة تعفيه من ضرورة انحيازه الطبيعي والواجب لجماعته الأصلية، وتبرر فعل "الخيانة" الذي يعني من ضمن ما يعنيه التصالح مع العدو (5)، وهذا بالضبط، ما قام به معلوف، وهو بالضبط أيضاً المقصود بالترويض.

3 - نموذج ترويض الفهد في (محميات) شعب أمريكا الأصلي (6):

يتغاضى أغلب المروجين والمهللين للسيطرة الأمريكية، ومن دعاة نظرية الترويض، عن الفشل الذي منيت به، إذ يكفي أن ننظر ببساطة إلى الولايات المتحدة وهوية شعبها الأمريكي الأصلي المسمى زوراً "هندياً أحمر"، لنجد أن ذلك لم يحقق هنالك النسبة المقبولة من النجاح، فكان لا بد من الانتقال للهدف الأساسي، القاتل، اغتيال الهوية، حيث عانت هذه القبائل من أبشع جرائم التطهير والتهجير، والتشويه، الذي يلصق كل صفة همجية بها، عبر مئات السنين، حتى ما زالت تجري معاملتها كفئران التجارب، بكل الطرق التي تذكّر بعصور العبودية، لأي سبب؟

ببساطة للسبب التاريخي الملازم لكل عملية هيمنة استعمارية، استبدال قيم بأخرى تناسبها كقوة مسيطرة، استبدال شعب بآخر تابع له ما دام لا يستجيب لعملية الترويض، استبدال هوية حضارية بأخرى، واستبدال عالم متعدد الهويات بآخر يعتبر التخلي عن الأرض والثقافة والحضارة، والتخلي عن أحلام شعوبه المحقة بالعيش بكرامة بعيداً عن الاحتلال والاستعمار والسيطرة لمن هو أدنى حضارياً وأخلاقياً، ضرباً من ضروب الحداثة والتطور.

أخيراً، يسعفنا التاريخ، البعيد والقريب على حد سواء، بآلاف الأمثلة والشواهد التي تحكي صراع الهويات والحضارات، ما اندثر منها بفعل تقاعس أصحابها عن الدفاع عنها والوقوع في شرك التنكر للذات لصالح الهوية الدخيلة، ومنها ما زال يصارع حتى اللحظة باذلاً الدماء والشهداء في سبيل الحفاظ على وجوده، بكرامةٍ يستحقها، ولنا في عروبتنا المهددة يومياً الشاهد الأصدق، علّنا نظفر ببقاء حضاري نقي، يعي الهوية الواضحة لشعبنا وخصائصها، ويعي بكل تأكيد إلى أي درك أسفل يمكن أن يقودنا الرضوخ الأعمى لعمليات الترويض الجارية على قدم وساق.

****

المراجع:

Wikipedia (The Hills Have Eyes) -1
(https://en.wikipedia.org/wiki/The_Hills_Have_Eyes_(2006_film

2- الهويات القاتلة (أمين معلوف)

Oxford Dictionary -3
https://www.lexico.com/en/definition/postmodernism

The Origins of Postmodernity – Perry Anderson -4

5- أمين معلوف والتطبيع
https://www.independent.co.uk/voices/commentators/fisk/robert-fisk-the-immortality-of-a-great-if-flawed-historian-2336906.html

https://al-akhbar.com/Last_Page/214902

National Museum of the American Indian (American Indian Removal) -6
https://americanindian.si.edu/nk360/removal/index.cshtml#MuscogeePage

العدد رقم (65) صدر في 1 الأول عام 2019 للميلاد

صناعة الماضي وتخيله كمعزز تاريخي وثقافي للهويات المتخيلة (استمرار الهيمنة وسردياتها)/ الجزء الثاني

فارس سعادة

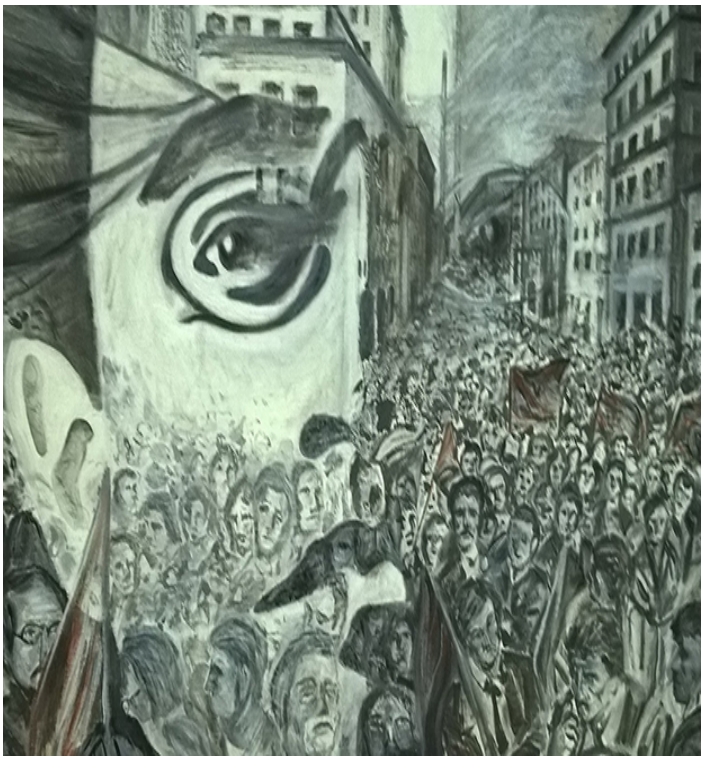

لقد عالجنا في المقال السابق (العدد 64 من طلقة تنوير) الرؤية الغربية لمسألة القومية وكيف يتم النظر إليها بأنها محض تخيل وعمرها لا يتجاوز عمر الدولة الحديثة في أوروبا، أي أنها أحد منتجات الحداثة سياسياً وثقافياً، وهذه الفكرة الأصيلة في العقل الغربي تقاطعت مع الفكرة والأفكار حول "الشرق" والوطن العربي تحديداً، إذ أن كل الأفكار والرؤى عن الأراضي العربية هي إفرازٌ لما تناقله العقل الغربي طول 500 عام في أقل تقدير من روايات توراتية استطاعت أن تخترق السرديات المسيحية الغربية، بل والشرقية في كثير من الأحيان، لتصل للعقل الغربي على أنها حقائق جذابة، تطلبت منهم في النهاية استقصاء هذا "الشرق" والوطن العربي تحديداً.

ولعل الإدراك الغربي لمصالحه الاقتصادية خارج القارة الأوروبية في فترة التوسع الكولونيالية للحصول على المواد الخام والثروات الجاهزة والعبيد أي قوة العمل، تقاطع أيضاً مع الرؤية والفكرة الغربية حول القومية، ولو بشكلٍ غير مقصود، وبالتالي كانت الدول المركزية في "الشرق" هدفاً وعدواً طبيعياً للدول القومية الأوروبية بعد اكتشاف الأراضي الجديدة، وذلك في سبيل تسهيل السيطرة على الموارد الطبيعية والأسواق من غير وجود عوائق سياسية ومادية ضخمة تتمثل بالجيوش المركزية والمنظمات السياسية التاريخية، أي الدول القديمة والكبيرة في آسيا وإفريقيا، وهذا ما مهد للرأسمالية والإمبريالية طريقها في غزو الأرض.

يهدف هذا الجزء من المقال لكشف أجزاء مما حدث لنا نحن كعرب وكشعوب مستضعفة رزحت تحت الاحتلال الأوروبي قروناً طويلة، ومن هنا يجب الاعتراف بذكاء العقل الغربي بالنظر إلى ما فعله بكل حنكة وصبر وطول نفس، وقد استخدم في ذلك جميع ما يملكه من معرفة علمية وتاريخية مسبقة، استطاع من خلالها السيطرة على المعرفة نفسها، أي أن العقل الغربي وما أنتجه من نظريات أو فرضيات علمية وتاريخية أصبحت هي الأصل ويتم تأصيل أغلب ما يتم اكتشافه أو العثور عليها بالعودة له ولمنهجياته الفكرية الإنسانية والعلمية التطبيقية.

هدفت الكولونياليات الغربية بعد سقوط الأندلس وذهاب الحكم العربي فيها في القرن الخامس عشر ميلادي، للسيطرة على السواحل المحاذية للقارة الأوروبية، ومن ثم توغلت السفن الإسبانية والبرتغالية، ومن ثم الهولندية والبريطانية وغيرها، في كل أصقاع الأرض، محتلين وخاطفين للشعوب من أراضيهم العذراء في أستراليا والأمريكيتين والقارة السمراء، لكي تحولهم إلى عبيد أو مرتزقة بحسب حاجتهم ومصلحتهم، ولكن هذا الجانب من الاستغلال الأوروبي لباقي الشعوب كان الجانب الظاهر والمكشوف للجميع، فما خفي كان أعظم، وما زلنا كعرب وشعوب مستضعفة نعاني من مضاعفته وأعراضه الجانبية التي قسمت وفككت الكثير من الأمم إلى شعوب وقبائل متناحرة كارهة لبعضها البعض، بل ولذواتها بشكل فاضح يبعث على الحزن والألم.

كان لا بد لهذه الشعوب المستضعفة من النهوض في وجه الاحتلال والتبعية والذل الوطني والقومي، فكانت حركات التحرر الوطنية والقومية من الفليبين إلى الكونغو، ومن المكسيك إلى فيتنام، وفي وطننا العربي من الجزائر

العدد رقم (65) صدر في 1 تشرين الأول عام 2019 للميلاد

إلى مصر الناصرية وفلسطين، هي الشرارة الأولى التي حفزت أبناء هذه الأمم والشعوب للتحرك دفاعاً عن موروثها التاريخي وماضيها الذي كان هدفاً مباشراً للغرب عن طريق تحويله إلى مادة أكاديمية وبحثية على طاولات المؤسسات الأكاديمية والبحثية... ولكن ما الذي حدث؟

ببساطة، لم تستطع الحركات الثورية إنتاج معرفة قومية خاصة بها، وخطاب معرفي مضاد وثوري، وفي رأينا قومي أيضاً، في مواجهة الخطاب الكولونيالي وما بعده، أي أن المشكلة بنيوية أساساً، تمس كل مؤسسة من مؤسسات هذه الدول التي حصلت على استقلالها ثورياً، أو بسبب خبث غربي أوروبي مستأصل في العقل الغربي الكولونيالي، أي أننا كدول محتلة سابقاً من قبل الكولونياليات الغربية حصلنا على استقلال وهمي جزئي لم يتمكن من استئصال السرطان الذي تم زرعه من قبل الغرب، هذا السرطان الذي مس كل جوانب الحياة اليومية للفرد والمجتمع، بل وسيطر على أهم ما يمكن للإنسان أن يلجأ له في الأوقات العصيبة، ألا وهو التجربة التاريخية والماضي والموروث الحضاري والمدني لأمته.

إن عملية دراسات هذه المجتمعات بشكل تفصيلي بدأت منذ زمن بعيد، تراكمت خلاله معرفة شاملة عنها لدى المؤسسات الغربية، وخلال الفترة التي تلت الحقبة الكولونيالية، أي بعد الاستقلال، أو فترة ما بعد الكولونيالية، لم تجد هذه الأمم والشعوب من سبيل لإعادة البناء لأسباب رئيسية أهمها فترة الاحتلال الغربي والتخلف الذي نُشر عن قصد من قبل سلطات الاحتلال أو السلطات التابعة لها أثناء فترة الاحتلال، ولذلك كانت عملية البناء صعبة، وحتى في الحالات الثورية، كما في مصر عبد الناصر، أو في جمهورية الصين الشعبية، وذلك يعود إلى قوة الغرب ببساطة وتحكمه بالاقتصاد العالمي بالنظر إلى قوته العسكرية، إضافة إلى عامل السيطرة على المعرفة وعلى مصادرها الرئيسية وأدواتها المعرفية، وامتلاك الغرب البنية التحتية ورأس المال اللازم للبناء المعرفي المؤسساتي، فما كان من مؤسسات الدول المستقلة حديثاً إلا أن تسير بحسب المقاس الغربي للمعرفة، وأن تتبعه معرفياً بشكل أو بآخر، كما حصل في علم الآثار وأغلب العلوم الإنسانية، حتى أن "العلوم الإدارية" أنتجت بحسب رؤية ليبرالية، لكي تكون الحضن الدافئ للشركات الرأسمالية، ولكن هناك استثناءات بالطبع، كما في الاتحاد السوفيتي الذي حاول ونجح في كثير من المجالات بأن يصنع له مساحة كافية للبحث والمعرفة والإنتاج المعرفي النوعي والكمي في العلوم التطبيقية والإنسانية وعلى رأسها علم الآثار، وفي أمريكا اللاتينية نجح علماء الآثار هناك في بناء خطاب "لاتيني" يتحدث عن ماضي أمتهم العريق، يعكس روح أرضهم وتفاعل أجدادهم معها بحسب ثقافاتهم هم ومناهجهم العلمية لا بحسب مقاس الغرب للمنهجيات، أي أنه يعكس حقيقة ما أقرب إلى الماضي لا فهم الممارِس لهذا العلم له.

أما عن سيطرة مؤسسات الغرب على الماضي فقد تحول إلى مؤامرة حقيقية تجاه الشعوب الأخرى، الأوروبية منها أو الآسيوية وغيرها، فأصبح موضوعاً واسعاً ومتشعباً، ولكن لا بد من إيضاح بعض مكنوناته والكيفية التي سيطروا بها على ماضي الإنسانية.

تحدث غرامشي عن أهمية وأصول السرديات التاريخية والكيفية التي تتحول فيها هيمنة طبقة ما على أخرى إلى هيمنة ثقافية كما هي اقتصادية، وبحسب غرامشي فإن الجماهير ترفض جزءاً من هذه السرديات التاريخية والتي هي في الغالب سرديات الهيمنة بشكل أو آخر - نقصد بسرديات الهيمنة تلك التي تعمل لصالح السلطة أو الاحتلال -، أي أن المجتمع أو "الحس المشترك" بحسب غرامشي لن ينجح في رفض كل السرديات التي تفرضها السلطة، وستتحول إلى جزءٍ أساسي من هيمنة البنية الفوقية الثقافية على الجماهير.

وانطلاقاً من أطروحات غرامشي حول الهيمنة الثقافية ومفهومه حول التابع "Subaltern" فإن صناعة الماضي والسيطرة عليه من قبل الكولونيالية والمؤسسات ما بعد الكولونيالية حصل بشكل ناعم "إرادي" إلا في حالات قليلة محصورة في نطاقات أكاديمية ضيقة.

الهيمنة الاقتصادية التي صرح بها ماركس، كانت هي الأم الحامل للهيمنة الثقافية على العالم من قبل الرأسمالية ومن ثم الإمبريالية، وعلى عكس ما قاله ماركس حول نهاية الرأسمالية وتحولها إلى اشتراكية ثم شيوعية، فإنها تأقلمت وبلورت "هيمنات" مختلفة تتكيف بحسب الواقع التي توجد فيه قادرة على إيجاد حلول على مستويات مختلفة اقتصادية وفكرية وغيرها، وقد كنا نحن "المستضعفون" من العرب وغيرهم أداة ساعدت الغرب على استدامة هذه الهيمنة، والمقصود هنا الهيمنة الثقافية تحديداً، إذ تركنا الماضي الحقيقي لصالح الماضي المتخيل والمفبرك في مخابر الغرب ومؤسساته.

العدد رقم (65) صدر في 1 الأول عام 2019 للميلاد

منذ مطلع القرن العشرين أنتجت المؤسسات الكولونيالية والمؤسسات الما بعد كولونيالية وخرّجت مئات الآلاف من الطلاب الوافدين إليها من الدول التي كانت في يوماً من الأيام تقبع تحت سيطرتهم الكولونيالية بشكل مباشر أو غير مباشر، ناهيكم عن الطلاب أصحاب الأصول العربية والإفريقية واللاتينية الذين تخرجوا من هذه الجامعات ليدخلوا إلى المجتمعات المحلية في دولهم كموظفين خبراء أو أصحاب سلطة ومعرفة داخل المدارس والجامعات الوطنية وغيرها من معاهد ومؤسسات قرار.

هكذا تم تناقل أغلب، ولا نقول كل، الأطروحات الغربية للعلوم الإنسانية والطبيعية تحديداً عبر هؤلاء الطلاب إلى مجتمعاتهم ما شكل استمراراً للخطاب الكولونيالي، أي أنه أصبح خطاباً إما ما بعد كولونيالي أو خطاباً تابعاً له، يحلل وينقد من خلال مناهج وأساليب وأيديولوجيا غربية مرتبطة بشكل وثيق بالتاريخ الكولونيالي للغرب، ومن ثم ينتقل إلى أصغر الوحدات الاجتماعية في المجتمع "الأسرة"، ومن خلاله يتم إنتاج المناهج الدراسية والسرديات التاريخية، إلى أن ينتج "إحساساً جماعياً مشتركاً" فيها على أنها هي الحقيقة التي تعكس وجوده.

وهذا ما يتقاطع تماماً مع تشكيل هوية المجتمع الجمعية، ويخترق لاوعي الجماهير بشكل غير مقصود غالباً، إلا أنه مرتبط بالهيمنة الخفية للغرب على الشعوب الأخرى مع سيطرته الاقتصادية والعسكرية على العالم، وإصراره على مركزة كل شيء حول العقل الغربي، من اليونان إلى روما، ومن لندن إلى واشنطن، وبالتالي تصبح المقاومة الثقافية أصعب من أن تقوم بها دولة بمفردها أو مؤسسة وطنية لوحدها، فالبناء الثقافي أو الثورة الثقافية تحتاج إلى جهدٍ قوميٍ بشكلٍ أساسيٍ، ومن ثم عالمي، باتجاه مناهضة الإمبريالية والغرب.

فعملية تعريف ماضي المجتمعات بشكلٍ كليٍ وتفصيليٍ عن طريق علم الآثار وعلوم التاريخ والتأريخ، شكلت أساساً للهويات الرئيسية والفرعية، وتم تعزيز ذلك عبر أدواتٍ مختلفة أهمها:

1. الروايات الدينية: وذلك عبر التوراة والسرديات الدينية المسيحية والإسلامية.
2. النظرة الإنسانية للماضي، لا القومية، من قبل مؤسسات الآثار الكولونيالية وما بعد الكولونيالية، هذه النظرة التي انتقلت إلى الكثير من كليات الآثار العربية و"الشرقية" نقلاً حرفياً في كثير من الأحيان.
3. استخدام المصطلحات كواجهة أولى للتعريف بالماضي، من خلال تعميم مسميات غير علمية على المواقع الأثرية وتحويل الكثير من الأسماء الدينية أو المكانية إلى أسماء ترتبط "بالعرق المزعوم" كما بابل=بابليين، وآشور= آشوريين.
4. المتاحف، وقد تم استخدامها بشكل كبير في تعزيز الماضي أو "سرديات الهيمنة" داخل عقول المشاهدين، من فلسطين المحتلة إلى متاحف لندن وليفربول واللوفر.

واستمرت عمليات تعزيز وتسهيل وصول هذه السرديات لأكبر عدد ممكن من الجماهير عبر وسائل مختلفة، من أهمها المنح الدراسية في الغرب للطلبة المجتهدين في العلوم الإنسانية، عمليات التنقيب الأثري والسيطرة عليه داخل الوطن العربي والكثير من البلدان المستقلة، السيطرة على الخطاب الثقافي عالمياً عبر السيطرة على المؤتمرات العلمية والجوائز العلمية، وحتى على مستوى الأدب، إذ ارتبطت سرديات الكتاب وقربها من الفكر والعقل الغربي وسرديات الهيمنة بالمكانة التي سيحوزها الكاتب عالمياً.

لقد خلقت "الأقليات" داخل مؤسسات الغرب، وارتبط ظهور المطالب الانفصالية بالمعرفة الغربية للماضي في آخر قرنين من الزمان، وقسمت الخرائط السياسية في الوطن العربي بحسب سرديات الهيمنة إضافة إلى المصالح الاقتصادية والجغرافية السياسية للغرب، ولكنها جميعاً، أي المصالح الاقتصادية أو سرديات الهيمنة كانت ترتبط بعضها مع بعض ولا تنفصل إلا في حال وجود المقاومة عسكرية كانت أم ثقافية.

وللحديث بقية.....

العدد رقم (65) صدر في 1 تشرين الأول عام 2019 للميلاد

إشكالية الاندماج في المجتمع العربي

بشار شخاترة

هناك ظاهرتان في المجتمع العربي تمثلان حالة جدلية وتتسمان بالتناقض والصراع، الحالة الأولى التفكك الاجتماعي بتعبيراته الدينية والطائفية والمذهبية والمناطقية والعشائرية، والحالة الثانية هي الاندماج والوحدة المجتمعية، وهاتان الحالتان سمتان اجتماعيتان عالميتان عابرتان للحدود والأمم والتاريخ كما الجغرافيا، ومن طبيعة هاتين الحالتين المتناقضتين والمتصارعتين أن مساحة كل منها تزداد وتتناقص على حساب الأخرى، بما يشبه الميكروب الذي يبقى كامناً وضعيفاً عندما يكون الجسم الحي قوي البنية، وحين يضعف تعمل الميكروبات عملها.

في الخارطة الاجتماعية العربية تتسع رقعة العصبيات الطائفية والدينية والمذهبية والمناطقية والعشائرية بتراجع الهوية الجامعة أو ضعفها أو تراجعها، أو بغياب المشروع القومي الجامع، إذ تتسم الخريطة الاجتماعية العربية بوجود تنوعات اجتماعية ودينية، وحتى تنوعات عرقية بقدر ما، تكونت بحكم ظروف تاريخية واقتصادية وسياسية، وهذا من الطبيعي حيث أن التجارب البشرية عموماً مرت بهذه الأطوار، ونمت على هامش نسيجها الاجتماعي تكوينات مختلفة الانتماءات تبعاً لظروف المجتمعات، وهذه التكوينات تجد بذور نشأتها تبعاً للخلفية التي تدفع أصحابها للتجمع والتكتل، فالتكوينات الطائفية المذهبية في تاريخنا العربي نشأت على خلفية صراع سياسي بخلفية دينية، أفضى فيما بعد إلى مذهبية سياسية ومن ثم أصبحت دينية، وأما التكوينات الاجتماعية المناطقية والقبلية العشائرية فإنها تتسم بطابعها المنحدر من طلب الحماية والحصول على الموارد والمرتبط بصلات القرابة على وجه من الوجوه، لكن ظهور وتمدد تلك التكوينات مرتبط بقوة وضعف الدولة التي تحتويها، وكذلك فإن التمدد له صيغة إيجابية إذا كان تحت سقف الدولة ولا يتنافى مع وحدتها السياسية ويصبح ضرباً من التنوع الثقافي، وله صيغة سلبية إذا كان تمدد التكوينات على حساب وحدة الدولة السياسية وعلى حساب الخطاب الجامع لها.

إن وراثة الدول العربية بمجموعها لتكوينات مجتمعية غير مندمجة في بوتقة الدولة بسبب حالات التراخي وغياب الدولة لفترات طويلة أو لخضوع الأقاليم العربية لفترات استعمار طويلة لم تكن وحدة المجتمع خلالها أولوية بالنسبة للمستعمرين، على العكس تماماً، ولابتعادها عن السلطة المركزية أنتج أمراً واقعاً يتسم بالتمايز على شكل طائفي أو تجمع قبلي أو قطري إقليمي في بعض الظروف.

دولة التجزئة العربية ورثت جُزراً اجتماعية بالإضافة إلى التخلف وضعف البنى الاقتصادية وتخلفها، وهذه الجزر هي في حقيقتها كيانات اجتماعية سياسية دينية دخلت في حالة من التجاذب تارةً والصراع تارةً أخرى على حدود الهيمنة والاندماج مع الدولة القطرية، لذلك مثّلت معضلة الاندماج في بوتقة الوطن بالنسبة لما يسمى أحياناً أقليات تحدياً لازم الدولة العربية القطرية التي تكونت بعد الحرب العالمية الثانية، لم تستفق من ارتداداته حتى اليوم، لا بل اتسعت رقعة تمدد التكوين المجتمعي بتلاوينه الدينية والاجتماعية والمناطقية، وتطورت لتصبح في بعض الحالات هي الحالة الطافية على المشهد الوطني.

إن الصراع بين التفكك والاندماج في بوتقة المجتمع العربي كانت ولا تزال تسير بطريق اللا حل حيث إنّ المسار الذي يريد فيه كل طرف أن يحسم المعركة لصالحه لا يسير لصالح دعاة الوحدة والاندماج، وذلك لأن التكوينات الاجتماعية التي تجد مكانها خارج النسيج الوطني تتقدم بخطوات على قوى الوحدة والاندماج،

وذلك لأن ساحة الصراع ليست هي الساحة القومية، بل هي ساحة إقليمية – قُطرية، ومجرد وجود هذه الساحة يعد سبباً رئيسياً لتغذية الخطاب التفكيكي والطائفي القبلي والمناطقي إلى آخر هذه التشكيلة.

ويزيد معركة الوحدة والاندماج وقواها تعقيداً في مشوارهم هشاشة المشروع الذي يحمله هؤلاء بالرغم من سلامة نوايا دعاة "الوحدة الوطنية"، لا سيما أن الأرضية التي ينافح فيها دعاة الوحدة تنم من منطلق أن الوطن (القُطر) هو السقف الذي يطلبون الاندماج تحت سمائه، ومع وجود بنية اقتصادية ضعيفة وحالة متخلفة ثقافياً فإنه لا يمكن أن تقوم حوامل قوية لتقزيم الدعاية التفكيكية للحالات غير المندمجة في المجتمع، حيث ارتكزت سياسة الصراع على استخدام القوة في أوقات كثيرة وكانت القوى الخارجة على المجتمع تضطر للمسايرة والركون بسبب بطش الدول القُطرية بأي حركات انفصالية، هذا الحل لا نقول أننا ضده إذا تغول أو تمدد مشروع التفكيك، لكن الحل المستند إلى القوة يبقى منتجاً طالما بقيت عصا الدولة قوية، لكن بمجرد تراخي قبضة الدولة تبدأ القوى النائمة بالتحرك، هذا علاوةً على أن هذه القوى الخارجة على النسيج الاجتماعي تبقى دائماً أداة للامتطاء من القوى الخارجية.

متى تتراجع التكوينات غير المندمجة عن طموحاتها بالانفصال أو على الاقل شعورها بالتمايز؟

يمثل هذا السؤال منطلقاً لتحديد الحل، ونبدأ من المشروع القومي الذي يشعر فيه الجميع أنهم على قدم المساواة في ظل الدولة القومية، ويشعر فيه الجميع أنهم في ظل دولة الوحدة القومية تتأمن لهم الظروف الاقتصادية والمعاشية التي يمارس في ظلها الجميع حرياتهم الكاملة طبقاً لمعتقداتهم بما لا يعارض حقوق الآخرين والنظام العام.

فمن المنطقي أنه لحل مشاكل "الأقليات"، إن جاز التعبير، أو الحالات الاجتماعية التي تعاني من صعوبة في الاندماج ضمن المجتمع، أو تلك الطامحة للانفصال، ألا تبقى مقاربة الحلول فيها مستندة فقط إلى القوة، بل لا بد من دفع تلك الحالات نحو الاندماج وذلك بخلق الظروف التي تتقاطع مصالحها مع المصلحة القومية العليا، عندها فقط يمكن تفويت الفرصة على العناصر المستفيدة من استمرار حالة التفلت، وسحب الذرائع التي تجعل من الطائفة أو القبيلة أو الفئة أو الانتماء المناطقي بديلاً عن الدولة القومية، هذا كله يضمنه المشروع القومي الشامل الذي يقدم مروحة واسعة من الحلول بحكم ضخامة البنية الاقتصادية للدولة القومية وبحكم الاتساع الجغرافي للوطن العربي الذي تضيق مع اتساعه مساحة الطوائف والفئات الاجتماعية غير المندمجة.

فالصفة التي يطرحها المشروع القومي للجمهور هي المواطنة، والمواطنة صفة يحصل المواطن فيها على حقوقه ويؤدي فيها واجباته، عندها فقط يمكن القول بتجاوز مشكلة الانتماءات الفرعية ليصبح تنوع التكوينات حالة تنوع ثقافي، ولا تعود تبحث عن كينونة لها خارج أطر المجتمع الذي يحتويها.

ويمتنع في هذا المشروع أن تصادر فئة اجتماعية أو دينية أو مناطقية الخطاب الثقافي والسياسي للدولة، بل أن الخطاب يجب أن يتسم بمدنية الدولة من دون مساس بحقوق المواطنين الدينية وحرية ممارسة المعتقدات بما لا يعتدي على حقوق الغير.

إن المشروع العربي الذي يتقدم لحل مشكلة الأقليات أو الفئات غير القادرة على الاندماج في المجتمع العربي، وإن كان آخذاً بعين الاعتبار المصلحة في تحقيق الاندماج، إلا أنه مؤسس بشكل صلب وقاطع على مركزية الهوية العربية وتفردها بالإضافة إلى العوامل والمنطلقات القومية في وحدة الامة كمقدمة في مشروع قيام الدولة العربية الواحدة، لأن الهوية العربية قاسمٌ مشتركٌ بين أبناء الأمة بصرف النظر عن دينهم أو طائفتهم، وبالتالي لن يجد أحد مشكلة في الانتماء إلى العروبة كهوية طالما أن حياته الروحية تأخذ تعبيراتها بالشكل الصحيح، لهذا فإن ربط المشروع القومي بالعدالة الاجتماعية والكفاية المعاشية مع الاحترام الكامل لخصوصية المعتقد في إطار الثوابت، عندها يبدأ ذوبان الجليد وتنطلق حالة الاندماج ضمن الاطار القومي العربي، فلا وجود لأقلية أو أكثرية الجميع هم الأكثرية، والجميع يحملون ذات الانتماء القومي والجميع يمارسون حقوقهم ويؤدون واجباتهم.

إن إنكار الانتماء الاجتماعي الذي تمارسه بعض الجهات في واقعنا العربي الراهن نتيجة تراجع قوة الدول العربية، مهد الطريق إلى تشتت قوة الدولة، وجعل منها نهباً لكل مارق، وغياب الهوية الجامعة حوّل المجتمع كاملاً إلى عدو محتمل لبعضه البعض، وأعاق التنمية وأسقط مفهوم السلم الأهلي والأمن المجتمعي، وفي حالة كالحالة العراقية مثلاً،

العدد رقم (65) صدر في 1 تشرين الأول عام 2019 للميلاد

من قال الانتقال إلى عصر الطوائف نهض بالعراق؟! نجزم وبثقة أن حالة العراق أبان اشتداد قبضة الحصار كان أفضل بما لا يقاس عنه الآن، وقد كانت الدولة في حينها في أشد حالات ضعفها، إلا أن القمقم الطائفي كان محبوساً. نقول أن الحل لن يكون في العراق وحده، ولا في سورية وحدها، أو مصر، أو... أو...، الحل سيكون عربياً بالجغرافيا والسكان بهوية عربية، وبما يحملون من تنويعات في المعتقد والتي هي أقرب إلى الثقافة منها إلى العقيدة، لأن الذي يجعل منها عقيدة ويزيد من الالتفاف حولها غياب المشروع وغياب العدالة والخوف الكامن من الهيمنة والاستلاب التي يشعر بها البعض، لهذا عملية الاندماج تبدأ وتنتهي بنقطة واحدة: أنا عربي.

قراءة في الصعود العالمي للدولار الأمريكي خلال الأشهر الفائتة

إبراهيم علوش

بعيداً عن الليرة السورية، شهدت الأشهر الأخيرة صعوداً نسبياً في قيمة الدولار الأمريكي مقابل العملات الرئيسية الأخرى، فقد بلغت قيمته في 28 أيلول/ سبتمبر مثلاً 1.09$ مقابل اليورو، فيما كان قبل ثلاثة أشهر، أي في 28 حزيران/ يونيو، 1.14$ دولار مقابل اليورو، أي أننا بتنا نحتاج لدولارات أقل للحصول على يورو واحد.

كذلك قوي الدولار مقابل اليوان الصيني، إذ كان يأتي في 28 حزيران/ يونيو بـ6.88 يوان، فيما بات في 28 أيلول/ سبتمبر يأتي بـ7.12 يوان، أي أن الدولار الأمريكي صار يأتي بوحدات أكثر من العملة الصينية.

وبالرغم من تذبذبه اليومي صعوداً وهبوطاً إزاء الفرنك السويسري، فإنه حافظ على متوسط قريب من دولار أمريكي واحد مقابل الفرنك السويسري الواحد، وهو ما يعني أن الفرنك السويسري صعد مع الدولار إزاء اليورو واليوان على المدى البعيد. كذلك انحدر الجنيه الاسترليني مقابل الدولار الأمريكي من 1.27$ قبل ثلاثة أشهر إلى 1.23$ في 28 أيلول/ سبتمبر، أي أن الجنيه صار أضعف، لأن الجنيه الواحد يحصل على دولارات أقل، مع حالة انحدار عام للجنيه إزاء الدولار في السنة الأخيرة. كذلك نجد أن الدولار الأمريكي قوي إزاء الروبية الهندية من حوالي 69 روبية قبل ثلاثة أشهر إلى حوالي 71 روبية إزاء الدولار في 28 أيلول/ سبتمبر، وكان قد وصل إلى 72 روبية في بدايات شهر أيلول/ سبتمبر. كذلك شهد الدولار صعوداً إزاء الريال البرازيلي من 3.84 ريال قبل 3 أشهر إلى 4.17 ريال في 28 أيلول/ سبتمبر، أي أن الدولار الواحد صار يأتي بريالات برازيلية أكثر. كذلك قوي الدولار الأمريكي بشكلٍ طفيف إزاء الدولار الكندي، وكان ذلك اتجاهه التاريخي خلال العامين الأخيرين تقريباً مع بعض التذبذب.

الاستثناء الوحيد لصعود الدولار إزاء عملات الدول ذات الاقتصادات الأكبر حجماً في العالم هو الين الياباني الذي تدهور الدولار إزاءه خلال العام الماضي من حوالي 114 ين إلى حوالي 107 ين مقابل الدولار في 28 أيلول/ سبتمبر، أي أن الدولار صار يأتي بوحدات أقل من الين، مع أن سعره كان حوالي 107 ين أيضاً قبل ثلاثة أشهر، وهو ما يخفي أنه وصل إلى 105 ين مقابل الدولار في شهر آب/ أغسطس الفائت، وهو ما فسره البعض بأن الين ازداد الطلب عليه موسمياً كملجأ آمن بعد ازدياد المخاوف من نشوء حرب تجارية بين الصين والولايات المتحدة.

ما سبق كان مقارنة سعر صرف الدولار مقابل سعر عملات الاقتصادات العشرة الأكبر حجماً في العالم، ولكن الملفت أكثر هو أن ارتفاع الدولار غالباً ما يترافق مع ارتفاع سعر الذهب، والعكس بالعكس، أي أن ارتفاع سعر الذهب، المسعر بالدولار الأمريكي عالمياً، غالباً ما يترافق مع انخفاض سعر الدولار الدولار الأمريكي، وهذا هو الاتجاه التاريخي منذ عام 1973 بالرغم من بعض الاستثناءات، غير أن ما جرى خلال عام 2019 هو ارتفاع سعر الذهب والدولار الأمريكي في آنٍ معاً، كما نلاحظ من الرسم البياني Gold versus US Dollar، حيث الذهب باللون الذهبي طبعاً، والدولار بالأزرق، وهو ما يشكل مفارقة تاريخية متميزة تعزز اتجاه الدولار للارتفاع.

العدد رقم (65) صدر في 1 الأول عام 2019 للميلاد

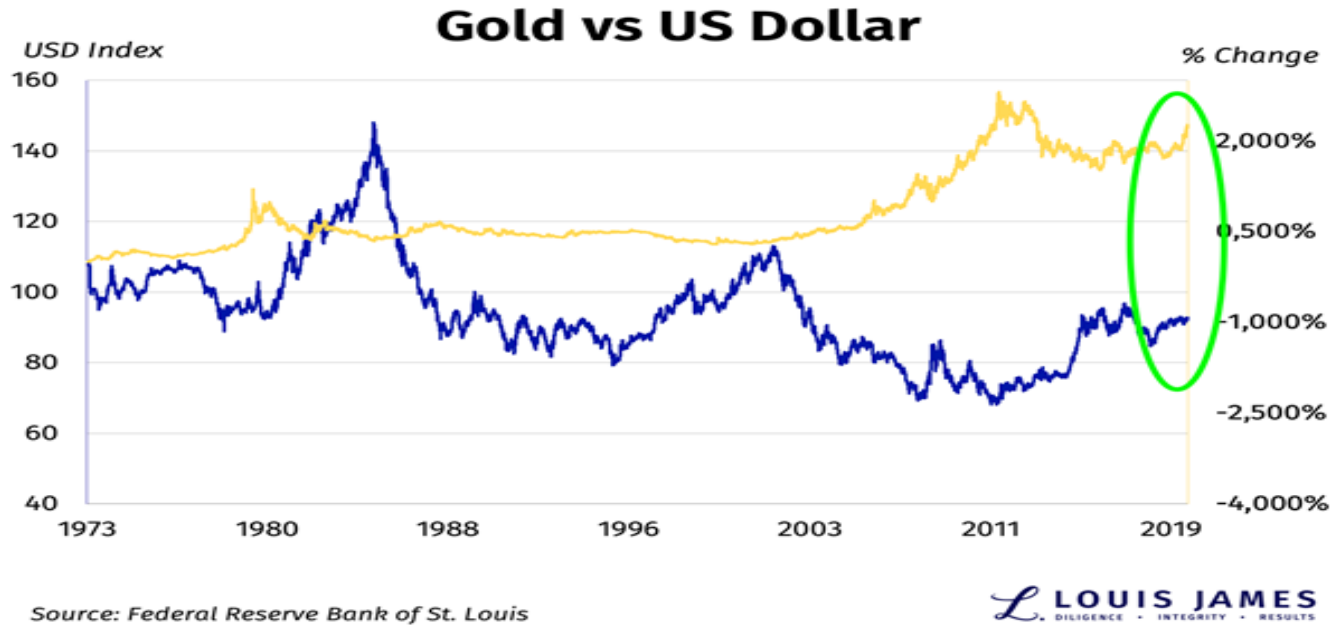

ثمة أكثر من تفسير لظاهرة ارتفاع الدولار في الأشهر الفائتة إزاء العملات الرئيسية، أولها أن بعض الدول، مثل الصين وكوريا الجنوبية، تضعف عملاتها عمداً لكي تزيد من تنافسية صادراتها في الأسواق الدولية، ولكي تزيد من جاذبية أصولها للمستثمر الأجنبي، وجاذبية السياحة فيها مقارنةً بغيرها، فالعملة الضعيفة ليست دوماً دليلاً على ضعف الاقتصاد، والعملة القوية ليست دوماً دليلاً على قوته، ومن هذه الزاوية تحديداً، ردت الصين على إجراءات ترامب العقابية ضدها بتخفيض قوة عملتها، بحسب زعم الأمريكيين، وهو ما دفع ترامب للتلويح بالمزيد من الجمارك على صادراتها إلى الولايات المتحدة، كذلك فإن الهند التي يتوقع أن تصل إلى معدلات نمو يساوي 5.8% في ناتجها المحلي الإجمالي عام 2019، يلي الصين بقليل فحسب (6.1%)، شهدت تدهوراً في سعر صرف عملتها إزاء الدولار الأمريكي، ربما بشكلٍ متعمد... بالمقابل، يتوقع أن يكون معدل نمو الناتج المحلي الإجمالي في اليابان عام 2019 أقل من 1%، وبالرغم من ذلك شهدت عملتها صعوداً إزاء الدولار.

أما الولايات المتحدة الأمريكية فيتوقع أن يكون معدل نمو الناتج المحلي الإجمالي فيها عام 2019 حوالي 2.1%، نزولاً من 3% عام 2018، ومع ذلك فإن قيمة عملتها تزداد، ويعزو بعض المحللين ذلك إلى زيادة الطلب على الدولار كملجأ آمن كالذهب، بسبب تدهور معدلات نمو اقتصادات الدول الغربية الأخرى واليابان وكوريا الجنوبية وغيرها، ولأن انخفاض معدل البطالة في الولايات المتحدة إلى مستوى تاريخي هو 3.6% يمنح الثقة بقوة الاقتصاد الأمريكي. وبالرغم من أن الاحتياطي الفدرالي (ما يعادل البنك المركزي الأمريكي) خفض معدل الفائدة مرتين في الشهرين الأخيرين (باتت الآن بين 1.75 – 2% بالمتوسط)، وهذا لا يشجع رؤوس الأموال على التحول إلى الدولار، وبالتالي لا يزيد من الطلب الدولي عليه، فإن تخفيض معدل الفائدة (لتحفيز الاقتصاد، وربما لتخفيض سعر صرف الدولار مقابل العملات الأخرى لتشجيع الصادرات الأمريكية أو لمنع تدهور موقعها في الاقتصاد العالمي)، في وقتٍ يتوقع فيه أن يظل معدل التضخم أقل من 1.7% عام 2019، يوحي بالثقة بقوة الاقتصاد الأمريكي الذي وصل إلى أفضل حالاته منذ مجيء ترامب، منذ الأزمة المالية الدولية عام 2008، ويترك معدلات الفائدة الحقيقية أعلى منها في أوروبا على سبيل المثال، وهو ما يشكل جاذباً للإيداعات بالدولار، وبالتالي للطلب عليه.

كل هذه العوامل زادت من الطلب على الدولار كعملة آمنة، شبيهة بالذهب إلى حدٍ ما، بالرغم من خطورة نشوب حرب تجارية مع الصين وشركاء الولايات المتحدة الآخرين، مما قد يضعف الصادرات الأمريكية، وبالتالي الطلب الدولي على الدولار، ولكن تحليل الخبراء الماليين يشير إلى أن قوة الولايات المتحدة تنبع من ضعف الآخرين مقابل الولايات المتحدة، لا من قوتها هي. بجميع الأحوال، هكذا بدا تصاعد الدولار الأمريكي مقابل مؤشر موحد من

العدد رقم (65) صدر في 1 تشرين الأول عام 2019 للميلاد

عملات شركاء الولايات المتحدة التجاريين خلال الأشهر الثلاثة الأخيرة... وهو ما يسمى US Dollar Index أي مؤشر سعر الدولار الأمريكي مقوماً بسلة من العملات الأخرى، وهو مؤشر ثمة من يتنبأ بأنه قد لا يستمر بالتصاعد في الأشهر المقبلة، ولكن ليس ثمة إجماع على مثل تلك النبوءة.

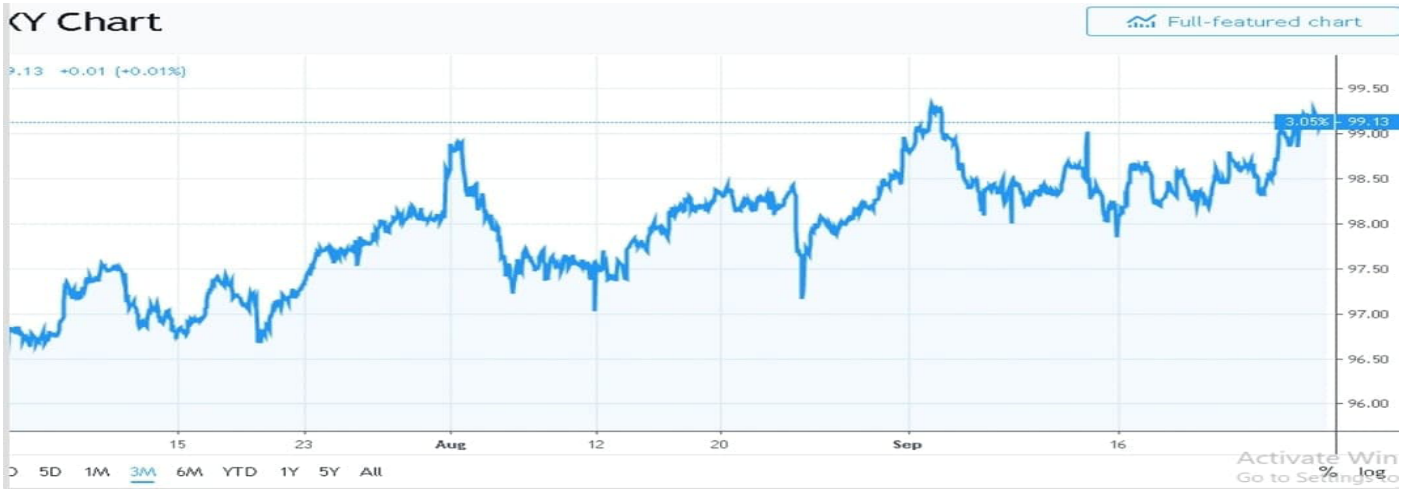

الأهم طبعاً هو العوامل طويلة المدى التي تجعل من الدولار أداة هيمنة إمبريالية أمريكية على الاقتصاد العالمي، إذ أن الطلب العالمي على الدولار يرتبط بكونه لا يزال عملة الاحتياط الرئيسية في المصارف المركزية حول العالم، وعملة الديون الدولية الرئيسية، كما أن الكثير من السلع الرئيسية التي تتم المتاجرة بها دولياً، تسعر بالدولار، وهذا لا ينطبق على النفط (بلغ حجم سوقه لوحده 1.7 ترليون دولار أمريكي) والغاز والذهب فحسب، بل ينطبق على الكثير من السلع الأخرى، من السلاح (الولايات المتحدة أكبر مصدر للسلاح في العالم، والسعودية أكبر زبون لها(، إلى اللحوم الحمراء إلى القمح إلى السكر والبن والكاكاو إلى الألمنيوم والنحاس والرصاص إلى البلاتين والفضة إلى غيرها، وهذا يعني أن أي ارتفاع سعر الدولار يعني ارتفاع في أسعار تلك السلع الموارد الرئيسية في العالم بالنسبة لمن يضطر لشراء دولار أغلى لشرائها.

والطلب العالمي على الدولار لهذا الغرض يتيح للولايات المتحدة رفاهية طباعة دولارات وشراء مستوردات بها لرفع مستوى معيشة الأمريكيين على حساب بقية شعوب الأرض بما لا يجرؤ أن يقوم به أي مصرف مركزي آخر ينحصر الطلب على نقوده محلياً أو في إطار إقليمي ضيق. ومثل هذه الهيمنة العالمية للدولار تتيح للولايات المتحدة أن تفرض العقوبات الاقتصادية حتى على دول كبرى مثل روسيا وغيرها، وهي عقوبات تستهدف، أكثر ما تستهدف، الأفراد والشركات والمؤسسات المتعاملة بالدولار الأمريكي، ولهذا قامت روسيا بتوقيع اتفاقيات تبادل بلا دولار أمريكي مع الصين وإيران وتركيا وغيرها، ودفعت لتطوير نظام تحويل أموال دولياً مع الصين بديل لنظام SWIFT، كما أن الصين وروسيا تدفعان شركاءهما التجاريين للتبادل بالعملات المحلية، وقد تجاوبت بلدان عدة في العالم الثالث مع هذا التوجه مدفوعة بإغراء الاستثمارات والمساعدات والتجارة مع الصين وروسيا.

لذلك فإن السعي لبيع النفط والغاز والسلع الاستراتيجية بغير الدولار الأمريكي يشكل مفتاحاً لتقويض السيطرة الأمريكية على العالم، بغض النظر عن العوامل الداخلية المرتبطة بالاقتصاد الأمريكي ذاته التي يمكن أن تعود لإضعاف الدولار الأمريكي كما يتنبأ بعض المحللين، مع أن ترامب، بطريقة تفكيره غير المتزنة، ربما يراهن بأن اقتصادات الدول الأخرى ستتدمر أكثر من الاقتصاد الأمريكي في الحرب التجارية، مما يبقيه في الموقع الأقوى، مع العلم أن الاقتصاد الأمريكي يظل السوق الأكبر في العالم، وهذا بحد ذاته يعني أن الطلب الداخلي على الدولار سيظل كبيراً بما فيه الكفاية، كما أنه سيدفع الراغبين بالتصدير للولايات المتحدة أو الاستثمار فيها لقبول الدولارات الأمريكية، ليظل الدولار أحد العملات الرئيسية في العالم، ولو تمت الإطاحة به عن عرش الاقتصاد الدولي الذي يتربع عليه الآن.

إن الإطاحة بعرش الدولار جزءٌ أساسي من المعركة للإطاحة بالهيمنة الإمبريالية الأمريكية على الاقتصاد العالمي، وهو أمر أسهم فيه اليمن مؤخراً عندما عرقل تصدير نصف النفط السعودي بضربه لأرامكو في حقول بقيق وخريص.

العدد رقم (65) صدر في 1 الأول عام 2019 للميلاد

تخيلوا لو تم بيع النفط والغاز العربي بعملة غير دولار، كم سيؤثر ذلك سلباً على قوة الدولار في العالم، وكم سيزيد ذلك من العجز في الحساب الجاري للولايات المتحدة. وتخيلوا لو بيع النفط والغاز العربي بعملة عربية موحدة كم ستكون رافعة لتحسين المستوى المعيشي في الوطن العربي برمته. والعكس بالعكس، ما دام النفط والغاز العربي يصدر بالدولار، فإنه يظل رافعة للهيمنة الإمبريالية الأمريكية، لا نفطاً أو غازاً عربياً، وهي نقطة لا بد من إبقائها في البال دوماً للجادين بمحاربة الهيمنة الإمبريالية، من العراق إلى إيران.

الصفحة الثقافية: رواية المرأة الفلسطينية (أم سعد)

طالب جميل

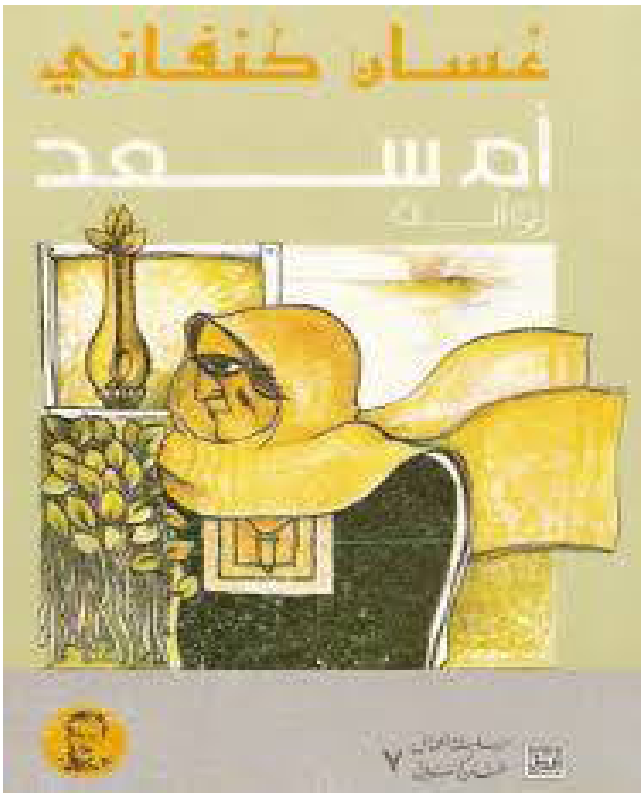

استطاعت الأم الفلسطينية المقاومة عبر كل هذا التاريخ الحافل بالتضحيات أن ترقى بنفسها لمرحلة الخلود، فأم الشهيد والمقاوم والبطل والفدائي التي حملت وربّت الروح والفكرة قبل أن تحمل وتربي الجسد لها نصيبٌ في ملحمة الخلود التي يسطرها كل شهيد أو مقاوم أو فدائي في فلسطين، وهي الحاضنة والمدرسة الأولى والتربة الخصبة التي نبت فيها المقاوم الذي وُلد وهو يحمل روحه على كفه.

(أم سعد) بطلة رواية غسان كنفاني واحدة من هؤلاء الأمهات اللواتي لبسن ثوب العز والكرامة مبكراً ليُخرجن أبناءهن من ظلمات التخاذل والحياة الاستهلاكية والضياع إلى نور المقاومة والتضحية والشهادة، ومن الأمهات اللواتي أثبتن للتاريخ أن فلسطين التي اغتصبت عنوةً ليست يتيمة ومثلما يملأ أرضها العنب والزيتون والبرتقال ينبت فيها الأبطال والمقاومون، ويتعطر ترابها بالمسك الذي يفوح من أجساد شهدائها.

يصف غسان كنفاني (أم سعد) وهي ترتدي ثوبها الريفي الطويل الأسود المطرز بالخيوط الحمراء بأنها "امرأة قوية كما لا يستطيع الصخر، صبورة كما لا يطيق الصبر، تقطع أيام الأسبوع جيئةً وذهاباً تعيش عمرها عشر مرات في التعب والعمل كي تنتزع لقمتها النظيفة ولقم أولادها، تفوح منها رائحة المخيمات بتعاستها وصمودها العريق وببؤسها وآمالها".

(أم سعد) "التي تقف في الصف العالي من المعركة وتدفع، وتظل تدفع أكثر من الجميع"، صاحبة القناعة الراسخة بأن "البارودة مثل الحصبة تعدي، وأن الحصبة إذا أصابت الولد فهذا يعني أنه بدأ العيش وأنه صار مضموناً". وهي التي ميزت بين الخيمة الضعيفة المغروسة في وحل المخيم وخيمة الفدائي التي تقف منتصبة كعنوان للصمود، والتي كانت مقتنعة بوجهة نظر (سعد) بأن تنقية الثورة من الشوائب تتطلب التخلص من فئة المتعاونين والمتسلقين والسماسرة والعملاء التي يمثلها (عبد المولى) وهو نفسه (أبو الخيزران) في رواية (رجال في الشمس) بشكل أو بآخر كما يمكن اعتبار (المختار) ضمن الفئة ذاتها.

(أم سعد) التي تدس في صدرها صورة لابنها المقاوم، وتضع حول عنقها سلسلة من المعدن تنتهي برصاصة مدفع رشاش مثقوبة قرب قاعدتها النحاسية ومفرغة من باردوها كان قد تركها (سعد) لها ذات زيارة، وبعد التحاق ابنها بالعمل الفدائي صارت فخورة بهذا الشاب العشريني صاحب الزي الكاكي الذي يزين كتفه بالرشاش،

والـذي قطـع الحـدود، و"ذهـب ولـم يقـل شـيئاً"، وازدادت فخـراً عندمـا قـرر أن يهـدي أمـه (سـيارة) مـن سـيارات العـدو ينسـفها هـو ورفاقـه مـن المقاتليـن، فوعـد ووفـى.

(أم سـعد) التـي استشـرفت المسـتقبل فقطعـت قضيبـاً بُنيـاً ناشـفاً مـن داليـة صـادفتها فـي الطريـق وزرعتـه عنـد البـاب لأنهـا كانـت متيقنـة أنـه سـيصبح داليـة وهـي إشـارة منهـا بـأن مشـروع المقاومـة هـو الـذي سـيبرعم ويزهـر وينتصـر، وهـي التـي قالـت عندمـا غـرق المخيـم بالوحـل نتيجـة الأمطـار التـي تسـاقطت "الفكـرة ليسـت فـي سـد المـزراب الـذي فـي السـماء لتجنـب الوحـل، بـل سـد المـزراب الـذي هـو مصـدر الهزيمـة والبـؤس".

(أم سـعد) التـي عبـرت عـن شـعورها القومـي عندمـا رفضـت أن تعمـل مـكان المـرأة اللبنانيـة وتقطـع رزقهـا، وهـي بذلـك تقـدم نموذجـاً فـي الإيثـار ليظهـر الحـس القومـي العالـي لديهـا فتعطـي درسـاً مهمـاً فـي الأخـلاق والشـعور بالآخريـن خاصـة مـن الفقـراء والمسـحوقين مـن أمثالهـا لتؤكـد دائمـاً أنهـا (الشـعب والمدرسـة).

روايـة (أم سـعد) رغـم قلـة عـدد صفحاتهـا (75 صفحـة) وفصولهـا التسـعة، إلا أنهـا تُعـدّ نموذجـاً مميـزاً وفريـداً لـلأدب الواقعـي، كتبـت بلغـة بسـيطة ورويـت علـى لسـان بطلتهـا (أم سـعد)، وكأن غسـان كنفانـي تعمّـد أن يوجههـا لجمهـور البسـطاء والفقـراء الذيـن اعتـادوا أن يقفـوا دائمـاً فـي صـف الوطـن، لأنهـم وقـود الثـورة وخميـرة النضـال والتضحيـة، والحبكـة فـي الروايـة كانـت عبـارة عـن وجهـة نظـر ثوريـةٍ وموقـفٍ سياسـيٍ صلـبٍ ونقـيٍ، ورأيٍ مـن قضيـةٍ وطنيـةٍ لا يحتمـل القسـمة علـى اثنيـن، ومرافعـة فـي حـب الأرض والتضحيـة والفـداء علـى لسـان البطلـة، فـ (أم سـعد) امـرأة عربيـة فلسـطينية حقيقيـة وليسـت مـن خيـال الكاتـب، كان يراهـا فـي المخيـم ولـم يسـتحضرها مـن عالـمٍ آخـر، كمـا أشـار إلـى ذلـك فـي مقدمـة الروايـة.

وبعـد كل هـذه السـنوات التـي مـرت لا يـزال الشـعب الفلسـطيني مكتظـاً بـ (أم سـعد) وأمثالهـا، يقـدم كل يـوم نمـاذجَ حيـةً نشـاهدها بـأم أعيننـا للنسـاء اللواتـي ينجبـن المقاتليـن والشـهداء والمقاوميـن الشـرفاء، ففـي كل المـدن والقـرى والمخيمـات داخـل فلسـطين المحتلـة يوجـد هنـاك الكثيـر مـن (أم سـعد)، فوالـدة (عمـر أبـو ليلـى) ووالـدة (باسـل الأعـرج) ووالدتـا (غسـان وعـدي أبـو جبـل) ووالـدة (مهنـد الحلبـي) ووالـدة (أشـرف نعالـوه) ووالـدة (صالـح البرغوثـي) هـن نمـاذج حيـة وواقعيـة للطهـر والشـموخ والكبريـاء الـذي لا يقـل عـن كبريـاء (أم سـعد)، وفلسـطين كانـت ولا تـزال النبـع الـذي لا يتوقـف عـن إنجـاب مثـل هـذه الأمهـات اللواتـي يودعـن أبناءهـن علـى إيقـاع أزيـز الرصـاص ويسـتقبلن الشـهداء منهـم بالزغاريـد.

فـي روايـة (أم سـعد) أعـاد غسـان كنفانـي التأكيـد علـى دور المـرأة فـي العمـل المقـاوم، وأراد أن يقـدم نموذجـاً للمـرأة الفلسـطينية البأسـلة الواعيـة بقضيتهـا الوطنيـة المؤمنـة بـأن الأم هـي المدرسـة والجامعـة وهـي المعلـم الأول، وهـي التـي تـزرع فكـر المقاومـة والتحـرر فـي عقـول وقلـوب أبنائهـا لتأخـذ موقعهـا الحقيقـي فـي المقدمـة فـي معركـة التحـرر مـن الاحتـلال، فكانـت هـذه المـرأة كمـا ورد فـي الروايـة "تلـد الأولاد فيصيـروا فدائييـن.. هـي تخلـف وفلسـطين تأخـذ".

وفـي هـذه الروايـة أكـد كنفانـي مـن جديـد علـى أنـه المثقـف المخلـص لمشـروعه الوطنـي لذلـك ظـل يبـوح فـي كتاباتـه وأعمالـه الأدبيـة بمـا تبـوح بـه عيـون المقهوريـن مـن الأطفـال والأمهـات الثكالـى فـي خيـام اللاجئيـن الفلسـطينيين، واسـتطاع مـن خـلال هـذه الروايـة ومـن خـلال رواياتـه وأعمالـه القصصيـة الأخـرى أن يؤسـس مدرسـته الأدبيـة الخاصـة بـه القائمـة علـى فكـر وأدب المقاومـة ممهـداً طريـق الخلـود لاسـمه ولأعمالـه لـدى كافـة المؤمنيـن بالعمـل المقـاوم وبحـق العـرب التاريخـي باسـتعادة فلسـطين باعتبارهـا جـزءاً لا يتجـزأ مـن أرضنـا العربيـة، لذلـك ارتبـط اسـم غسـان بالعمـل المقـاوم وبالتضحيـة وبالاستشـهاد.

ولأن غسـان كنفانـي كاتـب صاحـب فكـر ومثقـف ثقافـة قوميـة وثوريـة، ويؤمـن بـدور كل إنسـان عربـي رجـلاً كان أو امـرأة فـي مشـروع المقاومـة والتحـرر، فقـد اسـتطاع مـن خـلال روايـة (أم سـعد) إبـراز نزعـة المقاومـة بشـكل واضـح وحـاول ترسـيخ ثقافـة المواجهـة والبطولـة فيهـا وتقديـم نمـوذجٍ متقـدمٍ للمـرأة العربيـة الواعيـة بقضاياهـا الوطنيـة والقوميـة.

العدد رقم (65) صدر في 1 الأول عام 2019 للميلاد

الشعب هو الأبقى.. والانحياز له سلاح لا يُقهر

كريمة الروبي

"إن الإرادة الشعبية هي التي تملك أن تصنع قيادتها، وأن تحدد لها مكانها. إن الشعب يجب دائماً أن يبقى سيد كل فرد وقائده، إن الشعب أبقى وأخلد من كل قائد مهما بلغ إسهامه في نضال أمته، أقول هذا وأنا أدرك وأقدر أن هذا الشعب العظيم أعطاني من تأييده وتقديره ما لم أكن أتصوره يوماً أو أحلم به. لقد قدمت له عمري ولكنه أعطاني ما هو أكثر من عمر أي إنسان" ... الزعيم الراحل جمال عبد الناصر

تختلف نظرة كل حاكم لعلاقته بشعبه، فمنهم من يرى أن الانحياز للشعب هو القوة الحقيقية التي يحتمي بها من مؤامرات الداخل والخارج، بينما يرى آخرون أن الانبطاح أمام الغرب هو الذي سيحميه من مؤامراتهم ويجنبه غدرهم بل ويحميه حين تثور عليه الجماهير.

وفي الحقيقة إنّ السند الحقيقي لأي حاكم هو الشعب، فحين ينحاز الحاكم لشعبه ويثق به تتسلل تلك الثقة لتصبح متبادلة فيما بينهما فيعبر بهم الوطن كل الصعاب ويصنع بهم المعجزات، فهل يمكن أن يتخيل أحد أن يقوم حاكم بتوزيع السلاح على الشعب دون الخوف من عواقب تلك الخطوة؟ هذا ما فعله الزعيم الراحل جمال عبد الناصر حين قام بتوزيع السلاح على الشعب وتدريبه للمشاركة في دحر العدوان الثلاثي في 1956 دون أن يخشى على نفسه من أن ينقلب هذا السلاح ضده، فهو يثق في شعبه وهم بالتالي كانوا على قدر هذه الثقة فسطروا ملحمة بطولية خلدها التاريخ، ووضعوا مصر في مكانتها التي تستحق بعد أن مرغوا أنف الاستعمار وأخرجوه يجر أذيال الخيبة، لتبدأ مصر في كتابة صفحة من صفحاتها الناصعة تقود فيها الأمة نحو التحرر والاستقلال.

إن تهميش الجماهير وعدم الانحياز إليها يؤدي في النهاية لضعف الجبهة الداخلية، مما يجعلها عرضة للوقوع كفريسة للقوى المعادية التي يمكن أن تستغل سوء العلاقة بين الحاكم والشعب لتتسلل وتنفذ مخططاتها الاستعمارية، وبذلك يصبح النظام الحاكم شريكاً في تنفيذ تلك المخططات إما بصورة مباشرة بتبعيته وعمالته لدى المستعمر، أو بصورة غير مباشرة بإضعافه لجبهته الداخلية عن طريق تهميش الشعب وعدم الاهتمام بمطالبه المشروعة مما يفتح الباب أمام قوى خارجية لاستغلال هذه الفرصة لبث الشائعات وملء الفراغ الذي يتركه النظام.

قد يتوهم البعض أنه يمكن السيطرة على الجماهير عن طريق الإعلام دون وجود إنجازات تمسها وتحقق مصالحها على أرض الواقع، ولكن الجماهير لا يمكن السيطرة عليها حين تشعر بالغربة في أوطانها، ولا يمكن التعويل على صمتها كثيراً، فهي إن تحملت وصبرت فإن لهذا الصبر حدوداً، فقد تنفجر من دون أن تضع في اعتبارها أية حسابات عقلانية. صحيح أن الجماهير تسبق النخبة في حسها تجاه الأخطار المحتملة، وأن تلك الجماهير يمكن أن تتجاوز عن أخطاء الحاكم وتصمت أمام جبروته وتهميشه لهم وترفض أية دعوات مشبوهة تقود الوطن لمصير مجهول، إلا أنها وفي لحظة يأس ستضرب بكل تلك المخاوف عرض الحائط حين لا تجد ما تخسره ويصبح الوطن مجرد جنسية في خانة الهوية الشخصية.

إننا نمر في تلك المرحلة بمأساة كبرى تكمن في أن الجميع يطلب الرضا الغربي سواء الحاكم أو معارضوه، بينما الأجدى هو طلب الرضا من الشعوب فهم خير سند وقت المحن، فالغرب لا ينظر سوى لمصالحه،

العدد رقم (65) صدر في 1 تشرين الأول عام 2019 للميلاد

ودائماً ما يرمي بعملائه حين تنتهي حاجته إليهم أو حين يثور عليه شعبه، فلم يكن هناك من هو أكثر خدمة للأمريكان من شاه إيران الذي تخلى عنه أسياده بمجرد قيام الثورة عليه ونجاحها في إزاحته، ولم يجد من يستقبله ويقف بجانبه سوى السادات شريكه في خدمة الأمريكان، والذي اغتيل بدوره عام 1981 وسط جنوده أثناء الاحتفال بذكرى انتصار أكتوبر/ تشرين 1973.

في المشهد الأخير من فيلم "المنسي" للفنان المصري عادل إمام يواجه فيه بطل الفيلم رجل أعمال بقوته ونفوذه ورغم ذلك يباغته وينتصر عليه ولكن يطارده رجل الأعمال برجاله وسلاحه، وفي النهاية مع طلوع النهار تبدأ الناس في الظهور للذهاب لأعمالهم فيحتمي بهم البطل ويضطر رجل الأعمال إلى الانسحاب برجاله لأنه أدرك أن قوة الجماهير، وإن كانوا مجرد مجموعة من البسطاء، هي أكبر من قوته ونفوذه، والمغزى من المشهد هو أن الجماهير تمتلك القوى التي يمكن الاحتماء بها من بطش القوة الغاشمة، وهكذا يمكن للحاكم الاحتماء بشعبه ضد أية قوى خارجية قد تتدخل للفرض سيطرتها عليهم، وفي هذا الإطار يمكننا أن نرى تجارب ما زالت مستمرة كتجربة فنزويلا التي تسعى الويلات المتحدة لإركاعها، ولكن وقوف الشعب بجانب قيادته فوّت الفرصة أمام الأمريكي لتنفيذ خططه والتي كان يمكن أن تنهي كل شيء منذ سنوات مضت ولكنها الجماهير تقف كحائط صد بالتفافها حول قيادتها الوطنية التي تثق بها والتي بدورها انحازت إلى تلك الجماهير فكانت لها خير سند.

إن الجماهير يمكن أن تعطي للحاكم حباً وتأييداً فوق ما يحلم به ولكنها لا تمنح هذا التأييد بالمجان، فعلى الحاكم أن يكون منحازاً لهذه الجماهير، ناصراً وخادماً لها، وتكون تلك الجماهير هي بوصلته وهدفه، ولن يجد وقت الشدة سنداً سواها، وبها فقط يستطيع أن يصنع المعجزات. إن البسطاء من الشعب لا يطلبون سوى حقهم في حياة حرة كريمة، ومفاهيم العزة والكرامة والاستقلال الوطني لا يدركها أو يضحي من أجلها سوى هؤلاء ولا تنفصل عن أحلامهم. بهم يستطيع أي حاكم أن يتحدى العالم، وبدونهم يلقى مصير كل من ابتعدوا عن شعوبهم فألقت بهم الجماهير إلى مزابل التاريخ.

العدد رقم (65) صدر في 1 الأول عام 2019 للميلاد

قصيدة العدد: الجرح الكبير، في رثاء جمال عبدالناصر (حنا الطباع)

ما للكنانة فجرُها إظلامُ ... قل ما الأسى يا نيلُ يا أهرامُ
وهل النجيعُ على ضفافك أنهرٌ ... أم أدمعٌ غصَّت بها الأنسام
قالوا هوى النسر الكبير مضرَّجاً ... بالكِبرِ فالدنيا أسىً وحِمامُ
والليلُ أرخى فوق مصرٍ سترَه ... فنهارُها في الضفتين ظلامُ
وتبدَّدت في لحظة أحلامها ... فجمالُ مات وماتتِ الأحلامُ
يا للكنانة حين روَّع قلبُها ... إعلامُها فكأنه الإعدام
خرجتْ كما خرج الخليفةُ قبلها ... عمرٌ ونارٌ قلبُه وضرامُ
ليهدِّد الدنيا بموت نبيِّه ... ويريدُ أن لا يصدُق الإعلامُ
ما هالَها موتُ الرجالِ وإنَّما ... قد هالها أن الفقيدَ حسامُ
وهو الذي تلقى به أعداءها ... واليومَ فارق كفَّها الصمصامُ
خرجَتْ مرنَّحة القوى مذهولةً ... لتسيرَ حيثُ تقودها الأقدام
والناسُ في عدِّ الرمال عديدُهم ... وعلى وجوههمُ الحزينةِ هاموا
كتلٌ على مدِّ العيونِ جريحةٌ ... فتفجُّعٌ وتدافعٌ وزحام
بالأرضِ نوديَ يا ثرى فتفجَّرت ... عن كلِّ من تحتَ الترابِ فقاموا
أم أنَّ يومَ الحشرِ يومُ فقيدِنا ... فعليكِ يا روحَ الفقيدِ سلامُ
يا للكنانةِ من يضمِّدُ جرحَها ... والجرح بالعملاق لا يلتامُ
يا للكنانةِ كيف تحمِلُ خطبَها ... وعلى مفارقها الخطوبُ جسامُ
كم شُلَّ للنبأ المروِّعِ خافقٌ ... وكمِ ارتوت بدمِ الصدور سهامُ
وكم انحنى ظهرٌ وهُدِّمَ هيكلٌ ... إذ لم يعد تحت الجلود عظامُ
من ذا رأت عيناه بحراً مائجاً ... من كائناتٍ والدموعُ سجامُ
وعلى الرؤوسِ النعشُ يسبحُ آمناً ... متهادياً تزهو به الأعلامُ
أنا لم أقل وحدي بأن فقيدَنا ... أسطورةٌ حارت بها الأفهامُ
فوقَ الخيال سماتُه وصفاتُه ... وحديثُه فكأنَّه الأنغامُ

القصيدة في رثاء الزعيم جمال عبد الناصر، للشاعر حنا بن رشيد الطباع (1919-1979)، المولود في لبنان والمتوفى في سورية، وهو شاعر كلاسيكي متمكن من النظم، طويل النفس، منبري، في شعره نزعة خطابية، وجلجلة، وموسيقى صاخبة، يساندها ويجسدها أداؤه المتميز فيسيطر على مسامع جمهوره. مطولاته ثرية بألفاظها، غنية بقوافيها لا تشكو قلقاً أو ضعفاً، وفي هذا دليل على التمرس وتمكن الصناعة، كما أنه نابع من الحماسة (الفنية) لموضوع القصيدة.

العدد رقم (65) صدر في 1 تشرين الأول عام 2019 للميلاد

رسم العدد

انتهى العدد